المكتبة الثقافية
٦٤

انتصار مصر في رشيد

الدكتور عبد العزيز رفاعي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول يوليه ١٩٦٢

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء ان يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع الوان المعرفة باقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى اوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

الاشتراكية العربية

الأستاذ احمد بهاء الدين

١٥ يوليه ١٩٦٢

الثمن ٢ مليم

دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية
٦٤

انتصار مصر في رشيد ١٨٠٧

للدكتور: عبد العزيز رفاعي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول يوليه ١٩٦٢

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التقى الغرب بالشرق فى ساحة مصر لأول مرة ، فى العصر الحديث فى ظل الحملة الفرنسية ، فأخذت مصر تستيقظ من سبات طويل ، وتنضح جفنها الوسنان بأنداء مبادىء الحرية التى اختمرت فى الغرب .

وطلع فجر مصر الحديثة ، وأخذ يعبر عن ذاته فى طلائع أشرقت تساير نمو المطامع الاستعمارية فى مطلع القرن التاسع عشر ، بذوراً تتهيأ فى الخفاء بالاختمار نحو النماء فى ظل مقاومة المصريين للغزو الفرنسى ، تعبر عن اتجاه صاعد من التكوين القومى الحديث ، تجلت فى تخير مصر حاكمها محمد على ، بغير الطرق المألوفة فى تعيين الولاة العثمانيين .

واستمرت بذور الوعى الصاعد تنمو فتتجلى ألواناً من التماسك والشعور المشترك والإباء حتى عبرت عن ذاتها مرة أخرى فى ظل لقاء آخر مع عدوان الغرب ، فرضت مقدماته الحملة الفرنسية من قبل فيما أثارته من صراع استعمارى حول بسط النفوذ على مصر ، فكانت حملة « فريزر » سنة ١٨٠٧ أداة كشفت عن بواطن بذور هذا الوعى ، وكانت رشيد الساحة التى التقت فيها مقدرات الوعى الصاعد مسجلة نصرها على الاستعمار الغاصب ، وإن بدت هذه المقاومة الشعبية فى بساطتها نابعة بوحى من الفكرة الإسلامية قائمة على أساس الولاء للجماعة من خلالها. فقد مثلت فجراً جديداً عندما تحقق على يديها هزيمة انجلترا ، وقد كانت هذه الروح الجديدة ، إذ ذاك ، فى مشرقها تستنبت داخل هذا الإطار الإسلامى متجهة نحو نزعة قومية اتضحت مع الأيام .

ولقد كانت حملة فريزر على مصر ، حلقة من حلقات الصراع الاستعمارى الذى تأصلت جذوره فيها منذ أن بدأ الصراع بين انجلترا وفرنسا فى الشرق إثر احتلال الأخيرة لمصر على يد «بونابرت» . ولقد تشكلت السياسة البريطانية نحو مصر بعد جلاء فرنسا عنها على أساس مكافحة النفوذ الفرنسى فيها ، لضمان مواصلات

الإمبراطورية فى طريقها إلى الهند ، وقد اتخذ ذلك فى البداية صورة نضال دبلوماسى تارة ومؤامرات ودسائس تارة أخرى . حتى انتهى فى النهاية بتغير الموقف الدولى إلى عدوان حربى على مصر .

سعت بريطانيا لإعادة تنظيم قوة المماليك عقب الجلاء الفرنسى عن مصر ، وتمكينهم من النفوذ فى البلاد كسلطة موالية لهم ضد السيطرة الفرنسية ، فلم تفلح ، فلما استحكم النفوذ الفرنسى وفرض سلطانه على الدولة العثمانية أثار حرص انجلترا على مصالحها فى الهند ، وأسرعت تتجاوب مع الموقف بالقوة ، فأرسلت أسطولها إلى المضايق تهدد به الدولة العثمانية ، وتحاول بذلك إبعادها عن الارتماء فى أحضان النفوذ الفرنسى فى عهد نابليون ، فى الوقت الذى أرسلت فيه حملة فريزر إلى مصر للضغط عليها من جهة كى تتراجع ، وللحيلولة مؤقتاً دون وقوع مصر فريسة فى يد نابليون . وإذ ذاك تستطيع تنفيذ خطتها نحو مصر بإيجاد حكومة موالية لها من المماليك فتتمكن من بسط نفوذها عن طريقهم على البلاد .

وفى ساحة رشيد التقى الاتجاهان ، واستطاعت بذور الوعى الجديد التعبير عن ذاتها ، عندما وقفت هذه البلدة فى ثقة واعتزاز

وتماسك فى وجه الحملة حتى مزقتها ، ومن ورائها شعب متساند ، حتى لقيت الحملة على يد رشيد مصرعها فى النهاية . وكانت هزيمة بريطانيا حربية ، بتمزيق جيشها ، كما كانت سياسية ، وكان ذلك نصراً لمصر فى مشرق الوعى الجديد ، فقد حالت الهزيمة دون تحقيق الخطة السياسية وأصابت سياسة بريطانيا فى الصميم . وكان انتصار مصر انتصاراً رسم أمامها الطريق نحو البناء .

فى هذا الكتاب محاولة - فى خطوط رئيسية - للكشف عن حلقات هذين الاتجاهين اللذين انتهيا إلى ساحة رشيد فى هزيمة خطة بريطانيا التى شاءت فرضها على مصر ، وانتصار المقاومة الشعبية التى عبرت عن أصول هذا الوعى الصاعد ، آملين بهذا القدر المحدود أن نتمكن من الإسهام فى نشر الثقافة القومية وإبراز دور الشعب فى النضال القومى والكشف عن البذور الأولى للوعى القومى الجديد فى مصر الحديثة .

والله ولى التوفيق ؟

يونية سنة ١٩٦٢ عبد العزيز رفاعى

— ١ —

أطماع بريطانيا فى مصر

وموقف الشعب (١٨٠٣-١٨٠٦)

أثارت حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ مخاوف انجلترا على إمبراطوريتها فى الهند ، ومن وحى مطامعها الاستعمارية فى الشرق ، اتجهت إبان اشتداد المنافسة الاستعمارية بينها وبين فرنسا ، تعمل على صيانة طريقها إلى إمبراطوريتها بالقضاء على الحملة ، فلما أُجْلِىَ الفرنسيون عن مصر ، تشكلت سياستها حول متابعة النضال ضد فرنسا فى مصر ؛ لتنفرد من دونها بوحدة النفوذ فيها ، وتضمن طريقها إلى الهند بعيداً عن أطماعها .

وبينما كانت بريطانيا تجد فى نشاطها من أجل ذلك ، نضالا سياسيا بإعادة تنظيم القوة المملوكية التى كانت قد تفككت أواصرها من قبل واتخاذها كتكأة سياسية تعتمد عليها للحيلولة دون عودة الفرنسيين إليها والحيلولة دون أى احتمال لغزو مصر - كان يساير ذلك النشاط إذ ذاك طلائع وعى قومى استثاره الغزو الفرنسى من قبل وأخذ يعبر عن ذاته فى إطار الفكرة

الإسلامية حتى تجلى فى تخير محمد على والياً على مصر عام ١٨٠٥ . فلما انتهت الظروف الدولية ببريطانيا إلى إنفاذ حملة « فريزر » إلى مصر سنة١٨٠٧ للحيلولة دون وقوع مصر فى يد بونابرت معتمدة على حلفائها البكوات المماليك ، استطاعت هذه الروح الجديدة أن تعبر عن وجودها فى ثقة فى صد هذا العدوان فبفضل تماسك الشعب ذابت خطط بريطانيا العسكرية والسياسية فى ساحة رشيد .

* * *

اتجه الإنجليز وبذور الوعى القومى تختمر قبل جلائهم عن مصر فى احتلالهم الأول لها عام ١٨٠٣ ، لإعادة تنظيم القوة المملوكية كى يستندوا إليها كقوة موالية لهم لتحقيق مرامهم ، وذلك عندما تجلى لهم ضعف القوات التركية إبان النضال المشترك معهم ضد الفرنسيين ؛ لحاجتها إلى التنظيم . وقد اعتقدوا أن القوة المملوكية قوة أصيلة فى مصر ، قادرة وحدها على أن تقف أمام احتمالات غزو فرنسى لمصر ، وتمكينهم بعد تنظيمها وردها لمكانتها الأولى من تحقيق أغراضهم ، ذلك الأمر الذى يفسر تأييد انجلترا لقضية المماليك فى نزاع هؤلاء ضد العثمانيين عقب خروج الفرنسيين .

ولم تعمل بريطانيا حساب الروح القومى الذى بدأت طلائعه تشرق وهى فى دور الاختمار من خلال الفكرة الإسلامية بما ابتعثته من نضال ضد الفرنسيين من قبل، وما كانت تنزع إليه هذه الروح من كراهية ضد ظلم العثمانيين والمماليك على السواء. فبدأت فى التقارب إلى البكوات المماليك عندما أحست برغبة زعيمهم «محمد بك الألفى» للتعاون معهم من أجل استعادة نفوذه فى البلاد، فالتقى الطرفان فى الوسيلة واختلفا فى الغاية.

شاء الألفى قبل أن يلتقى متحالفاً مع الإنجليز أن يصفى ما بينه وبين الأتراك من مسائل، واسترجاع نفوذ المماليك فى مصر على حساب العثمانيين بوساطة الإنجليز. فرجع إلى قومه يستشيرهم فى الأمر، فلما وجدهم مختلفين معرضين عن هذا التعاون ضد العثمانيين بدافع النزعة الدينية، من الخوف من تحالفهم مع الإنجليز ضد سلطان المسلمين، حاول إقناعهم، وكانت حجته إذ ذاك أن العثمانيين أنفسهم لم يستنكفوا — من أجل تحقيق أغراضهم واسترجاع نفوذهم فى مصر على حساب الفرنسيين — أن يتحالفوا مع الإنجليز أنفسهم عندما اضطرتهم الظروف إلى ذلك رغم اختلافهم عنهم فى الدين. فلما أصر جمهور

البكوات على رفض ما أشار به الألفى بك عليهم من رأى اتجه على الفور يدبر الأمر بنفسه .

حاول أولا قبل الالتجاء إلى الإنجليز التفاهم مع العثمانيين فى مصر لاسترداد نفوذه ونفوذ عشيرته ، فاتصل بالوزير التركى الذى كان موجوداً إذ ذاك فى مصر . فوجد منه استعدادا للتفاهم والاستجابة إلى مراميه ولكن فى مكر ودهاء . فقد كان مرمى الوزير من ذلك الحصول على المال من الألفى ثم تفريق كلمة المماليك إذا ما استطاع السيطرة عليه ؛ وقد كان العثمانيون يعملون له كل حساب لنفوذه وقوته .

وتفاهم الطرفان فى البـــداية فقلد الوزير التركى محمد بك الألفى إمارة الصعيد . وذلك نظير إتاوة مالية . وبدا الموقف وكأنه قد سوى ؛ ولكن كان يطوى فى ثناياه اتجاهات كان من تأثيرها فى النهاية تحول الألفى نهائيا وإعراضه عن العثمانيين وإلقائه بنفسه بين أحضان الإنجليز . من أجل تحقيق مرامه فى البلاد .

فلم يلبث الوزير أن وجه قوته ضد المماليك ، عندئذ حاربهم الألفى حيث شاءوا الحرب ، ونزل تاركا الصعيد متوجها إلى البحيرة ، وهناك اصطدم مع الأتراك اصطداما كبيراً .

فلما تكشفت نيتهم اتجه فى عزم يحالف الإنجليز ويعاهدهم على اقتسام النفوذ فى مصر فيما بينهم ، بمعاونة كل الآخر على القضاء على خصمه .

واصطحب الإنجليز الألفى معهم إبان جلائهم عن مصر عام ١٨٠٣ وكان معه من زعماء المماليك ١٥ مملوكا ، لتنسيق الخطط بين الطرفين ، وذهب الألفى إلى إنجلترا ، ولاقى من أجل ذلك عناء كبيراً ، تاركا مصر — وهى تجد ساعية لتخير حاكمها الصالح الذى يريد لها الأمن والطمأنينة — بين صراع تتجاذب أطرافه : السلطة العثمانية صاحبة السيادة ، والمماليك الساعون إذ ذاك بوسائلهم لاسترداد سلطانهم ، ثم عاد الألفى أخيراً بعد أن نسق خططه مع الإنجليز وهو أشد حماساً وأملا فى تنفيذ ما أرسى فى رأسه من خطة ، ليشهد صراع هذه القوى الثلاث وهو فى نهايته ، وما كاد يستقر فى مصر حتى شاهد القوة الشعبية تبرز بزعامة عمر مكرم فتستجيب إلى الموقف وتتخير حاكمها بوحى منبعث من خلال الحكمة الإسلامية عن نظام الحكم ، تلك التى استثارتها الحملة الفرنسية من قبل حتى اهتدت إلى ضابط ألبانى رأت فيه ما يحقق أغراضها فى دعم الأمن والطمأنينة ، ورأت فيه الحاكم الصالح الذى يجب أن تدين له بالولاء ، فرفعته إلى أريكة

الحكم ، وقد رغب إذ ذاك ، هذا الألبانى ، محمد على ، الاستناد إليها لتحقيق رغبته فى الانفراد بالحكم ، فاستوى على عرش مصر بغير الطرق المعهودة فيها فى تعيين الولاة ، وذلك فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ فكان ذلك إيذانا بشرق وعى جديد فى مصر. كان يساير نمو النشاط الاستعمارى ويتهيأ مع الأيام ليكون مبعث نضال ضده . ونذير سوء لأطماع الإنجليز والمماليك على السواء .

شعر الألفى بميلاد خصم عنيد جديد له ، فانزعج أيما انزعاج بأكثر مما انزعج حلفاؤه الإنجليز ، ونشطت السلطة العثمانية تتجاوب مع الموقف ، كما نشطت الخطة البريطانية للقضاء على هذه القوة الجديدة فى وقتها بتمكين المماليك من البلاد . فلما لم توفق وهدد النفوذ الفرنسى مصالحها فى مصر أسرعت فى ظل تغيير الموقف الدولى لحماية مصالحها ، بإنفاذ حملة فريزر على مصر سنة ١٨٠٧ وتنفيذ خطتها السابقة .

أخذت تركيا تراقب الموقف لتنفذ ماتراه صالحاً ، وأخذت الدسائس تحيط بمحمد على وأقدامه لم تستقر بعد فى الحكم ، فهزت كيانه كحاكم وتحدت مشيئة الشعب فى زعمائه .

سعت السياسة البريطانية بعملائها فى الآستانة للكيد له وإسناد الحكم إلى الألفى .

واتجه الألفى بدوره يؤلب المماليك على محمد على ، وهو الرجل الذى اعتلى الحكم فزاد نفوذهم تهديداً .

أما الشعب الذى نصب محمد على على أريكة الحكم راضيا ، فقد وقف فى ملتقى الطرق يعمل على الحفاظ على إرادته ضد هذه القوى المعادية .

لم تكن السلطة العثمانية حين رضيت بمحمد على واليا على مصر ، مستجيبة إلى رغبة شعبها خالصة النية نحوه ، فلم يكن من الولاة الذين ترسلهم إليها وتعزلهم كما تشاء ، بل كان الوالى الذى أسلمه الشعب سلطات الحكم ففوت عليها إرادتها ، فلم يكن موقفها بالذات إذ ذاك إلا كمن يفوت للعاصفة فى انتظار الفرصة السانحة لاسترجاع حقوقها التقليدية ؛ لذلك سرعان ما أوفدت بعد ذلك قبطان باشا فى ١٧ يوليو سنة ١٨٠٥ فى عمارة حربية تقل ٢٥٠٠ جندى ليراقب سير الحوادث ، ويتخذ مايراه صالحا لتركيا ، وقد خولته حق تثبيت محمد على على الولاية أوعزله منها . وقد أثار وجوده فى السواحل المصرية دسائس المماليك ومن ورائهم الإنجليز ، فظهر هؤلاء قوة تحارب الوالى الجديد الذى لم يكن له من قوة ولاسند ، غير هذا الشعب الذى رفعه حتى مكنه من الملك فى البلاد .

أخذ الألفى زعيم المماليك يراسل قبطان باشا ويعرض عليه أن ينحاز لقواته لمناوأة محمد على وطرده وجنوده الأرناؤوط من مصر ، بل وأخذت رسل الإنجليز مع هذا — أثناء مقامه فى أبى قير — تتردد عليه مؤيدين مطالب الألفى محاولين إقناعه لإسناد ولاية مصر إليه ، بل جاهر الإنجليز أن حكومتهم تضطر إلى تجريد جيش على مصر لتأييد وجهة نظرها وذلك لبسط نفوذها بهذا عن طريق المماليك .

وانتهز المماليك فرصة وجود قبطان باشا ولم يعض على تولية محمد على شهران ، ودبروا هجوما على القاهرة ، ليستولوا به على زمام الحكم ، وقد اختاروا الهجوم يوم الاحتفال بوفاء النيل فى أغسطس عام ١٨٠٥ ولكنهم أخفقوا . فقد وضع محمد على يده على هذه المؤامرة وقضى على خيوطها بالخسران ، وقد انتهز محمد على هذه الفرصة فاستولى على الجيزة فى سبتمبر سنة ١٨٠٥ وكانت لا تزال فى أيدى المماليك ، فلما دعم بهذا مركز محمد على ولمس قبطان باشا جدارته بالتأييد رحل إلى بلاده ومعه الوالى المخلوع .

عرف محمد على ما لزعامة الشعب من المكانة والنفوذ عند الجماهير ، فقدر لهم بدهائه هذه المنزلة إبان هذه الظروف

الدقيقة ، فكانوا مرجع الحكومة فيما تفرضه من الإتاوات والضرائب ، كما كانوا حلقة الشعب فى تخفيف ما تفرضه الحكومة منها ، وقد عظم نفوذ زعيمهم عمر مكرم فى تلك الآونة إلى مالم يسبق له نظير من قبل ، ولا غرو فهو الذى قادالشعب حتى أجلس محمد على على عرش مصر .

محاولة عزل محمد على

كان المماليك يدركون مكانة عمر مكرم فى نفس الشعب والحكومة ، فلجأ إليه محمد الألفى ليتخذه وسيطاً بينه وبين محمد على لينهى الحرب بين الطرفين على أن يعطيه جهة يقيم فيها وأتباعه ، فأبى عمر مكرم ، وقامت الحرب سجالا بين المماليك ومحمد على ، وانسحب الألفى إلى الفيوم يعد العدة للقتال ، ورغم ما كان للماليك من نفوذ حتى أوائل سنة ١٨٠٦ فى الصعيد ، فقد أنفذ إليهم جيشاً يطاردهم ، ولكن سرعان ما أوقت الحرب عندما واجه محمد على مشكلة خطيرة كادت تقلب عرشه بفضل دسائس بريطانيا ، فلم ينجه منها إلا دهاؤه المستند إلى تأييد الشعب .

ظل محمد على غير مرضى عنه لا من تركيا ولا من الإنجليز ،

وإن ظل باقياً على عرشه ولم يمنع هؤلاء من أن يسعوا سعياً حثيثاً فى إقصائه عن مصر وإحلال المماليك مكانه .

وكان الألفى إذ ذاك على اتصال مستمر بعملاء الإنجليز بمختلف الرسائل والرسل يتخذهم شفيعاً لدى الباب العالى ، ليعاونوه على وضع الشروط التى يتولى بها الحكم ، وقد رأت بريطانيا أن يعين على مصر والٍ جديد من هؤلاء الولاة الذين كان من طبيعتهم ترك سلطة الحكم للمماليك ، ثم أبلغت تركيا أن الألفى خير من ترشحه لذلك ، وهو يتعهد بأن يؤدى جزية سنوية لها مقدارها ٧٥٠٠٠٠ قرش تضمنها بريطانيا ، وقد أتبعت ذلك بعوامل أخرى من الإغراء حتى صادف ذلك هوى فى نفوس حكام الآستانة ، لاسيما وأن الباب العالى لم يكن لينسى أن إرادته فى تولية محمد على كانت خاضعة لضغط شعب مصر ، كذلك لم يكن مألوفاً أن تظل تركيا فى إقرارها ولاية مصر بأكثر من عام . لذلك صحت عزيمتها على عزل محمد على ، فأصدرت فرمانا بتولية موسى باشا مكانه ، وتقلد محمد على ولاية سلانيك ، وكان متوقعاً أن يكون الوالى الجديد آلة فى يد المماليك ، ومن ثم تعود السلطة إليهم ، وبالتالى يحقق الإنجليز أغراضهم كما كانوا يحلمون . ولتنفيذ ذلك أوفدت تركيا فعلا عمارة بحرية بقيادة صالح باشا ؛ لتنفذ النقل بدون مقاومة .

وكان الألفى قد اطلع من قبل على مفاوضات الإنجليز والباب العالى من قنصل انجلترا بمصر ، مما دعاه إلى التحرك من الفيوم قاصداً الوجه البحرى عندما طارده محمد على ، وكانت غايته أن يلتقى بصالح باشا عند حضوره ، وقد علم بمقدمه عندما وصل قرب دمنهور ، والتقى الألفى برسل الترك والإنجليز فى حوش عيسى ، وهنالك طمأنوه على آماله . ويروى الجبرتى المؤرخ المصرى ، فى حوادث يونيو سنة ١٨٠٦ : « أن العمارة التركية احتوت جيشاً نظامياً جديداً ومعها بضعة أشخاص من الإنجليز يحملون مكاتبة موجهة إلى الألفى وبشارة بالرضا والعفو عن المماليك صادرة من الدولة العثمانية بفضل وساطة الإنجليز ، فلما وصلوا إليه بناحية حوش ابن عيسى بالبحيرة سر بمقدمهم ، وأرسلهم إلى المماليك بالصعيد ، وقد صحبهم أحد سناجقته وهو أمين بك ومحمد كاشف تابع إبراهيم بك الكبير ، كما أنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر إلى المشايخ وغيرهم بمصر ، وكذلك إلى مشايخ العربان ، مثل الحويطات وشيخ الجزيرة » . وقال الجبرتى فى موضع آخر فى ترجمته للألفى : « وكان مع ماهو فيه من التنقلات والحروب يراسل الدولة الإنجليزية » . وقال فى موضع آخر : « والسبب

فى حركة القبطان لإرساليات الألفى للإنجليز ومخاطبة الإنجليز الدولة ووزيرها محمد باشا السلحدار ».

واستقر صالح باشا فى الثغر ، وأوفد رسوله إلى محمد على يبلغه فرمان النقل ، فأخذ ذلك يستخدم ضروب دهائه ومكره لمواجهة الموقف فتظاهر بالامتثال ، ولكنه تأهب سراً للمقاومة مستنداً إلى الشعب فى زعامته ؛ ليواجه به العاصفة ، فاتجه بفكره فوراً إلى السيد عمر مكرم يستنجد به لإحباط هذه المؤامرة فركب ذلك إليه . وفى خلوة بينهما أفضى محمد على إلى عمر مكر بمؤامرة تركيا وطلب النجدة ، فكان عمر مكرم باسم الشعب لمحمد على نعم النصير الأمين .

موقف الشعب من إحباط المؤامرة :

اعتزم الألفى بعـــد أن وصلت العمارة التركية الإسكندرية الاستقرار فى دمنهور لحاصرها ليكره أهلها على التسليم . أما محمد على فراح يجد فى إحباط المؤامرة والقضاء على قوات الألفى معاً .

اتفق محمد على والسيد عمر مكرم على أن يجتمع العلماء ويكتبوا محضراً فى شكل التماس بالاعتراض على عزله ،

والاحتجاج على تولية موسى باشا ، وعودة المماليك . وكان مضمونه أن المماليك قد عرضوا على السلطان تعهدهم بدفع الأموال الأميرية وأداء مرتبات الجيش والعفو عن جرائمهم الماضية نظير الموافقة على دخولهم القاهرة ، وأن طلبهم حاز القبول . وبهذا صدر الفرمان بعزل محمد على ، وقد قبلت توبتهم على أن يقبل العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بمصر كفالتهم ، إلا أن الموقعين على العريضة لايستطيعون كفالتهم « فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول ونحن لاقدرة لنا على ذلك » . ثم عدد العلماء فى عريضتهم مساوىء المماليك ومظالمهم وأطروا أفعال محمد على ، وبهذا لم يجيزوا تغيير الوالى ولم يرضوا بعودة الحكم إلى المماليك أو يقبلوا كفالتهم .

أما قبطان باشا فمضى ينفذ خطته ، فطلب من العلماء فى رسالة الامتثال للأمر ، فلم يلق منهم جواباً صريحاً بالامتثال ، ولما كانت الأوامر تقضى برحيل الجنود الأرناؤود مع محمد على ، فقد تذرعوا بأن امتناع الجنود عن الرحيل وعصيانهم يترتب عليه تعرض البلاد للخراب ، فكرر عليهم قبطان باشا الأمر فى رسالة شديدة اللهجة ، فكتب العلماء رسالة أخرى إلى قبطان باشا فى أغسطس سنة ١٨٠٦ يذكرونه فيها صراحة أنهم لايرتضون

عن محمد على بديلا ؛ لأنه «كافل الإقليم وحافظ شعوره ، ومؤمن سبيله وقاطع المعتدين» . والشريعة مقامة فى أيامه ولا يرتضون خلافه ؛ لما رأوا فيه من الخير ، ومن هذا يتجلى موقف الشعب فى زعامته فى مساندة محمد على وتأييد كلمته ، وهو يقف أمام تركيا ومن ورائها بريطانيا .

أخذ محمد على يتخذ خطة يعزز بها مساندة الشعب له ، فاتجه يحرض الجنود على العصيان ، والمعارضة فى رحيله ، فصادف ذلك هوى فى نفوسهم ، لأنهم خشوا إذا هو ارتحل عن مصر أن تسقط رواتبهم المتأخرة ، فعاهدوه على الأمة والإخلاص ، ومن ثم أخذ يستعد للمقاومة فأمد القلعة بالميرة والذخيرة وحصن الطوابى ، وأنفذ جيشاً من جنوده إلى الرحمانية ؛ ليكون على أهبة الاستعداد لقتال الألفى والأتراك وغير ذلك ، وكانت ثقة محمد على بزعامة الشعب هى التى عاونته على إنفاذ فكرة المقاومة كما كان تأييد هؤلاء له تأييداً للسياسة التى رسموها من قبل وتثبيتاً لما اكتسبوه من نفوذ فى تسيير شئون الحكومة .

ثم تذرع محمد على بلون آخر من الدهاء والحيلة إزاء المماليك ، فأخذ يعمل على فصم عراهم ، بإثارة روح التنافس القديم بين زعمائهم .

كان رؤساء المماليك ينقمون على محمد الألفى ، انفراده بالاتصال بالإنجليز ، وكتمانه أسرار المفاوضات عنهم ، وقد أرسلوا سعاتهم إلى محمد على يعرضون عليه الصلح ، فانتهز الفرصة وتلقى السعاة بالبشاشة ، نكاية فى خصمه الألفى ، ثم استخدم حيال الترك سلاحا آخر وهو الرشوة ، فقدم الرشا والهدايا لصالح باشا وبطانته ، ولرجال الباب العالى ، فكان لذلك كله أثره على ضفاف البسفور ، كما بذل سفير فرنسا مساعيه نحو محمد على ، فبعث الديوان إلى صالح باشا يطلق يده ويكل إليه التصرف المطلق فى الأمور .

ولقد كان لفشل الألفى فى محاصرة دمنهور لدفاع أهلها عنها دفاعا مجيدا ومساندة عمر مكرم لهم بالتشجيع والإمدادات أثره فى إحباط الخطة المرسومة بالاشتراك بين الباب العالى والإنجليز ، هذا بجانب مابدا من تخاذل المماليك وتفككهم .

وقد انتهز محمد على فرصة انهماك الألفى فى محاصرة دمنهور فاتصل بحاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليجذبهم إلى صفه .

وبدأ الموقف يتحول إلى جانب محمد على وأخذت الخطة الإنجليزية التركية تتجه نحو الفشل .

أحدث المال فى نفس صالح باشا وبطانته تحولا كبيرا فى النفوس . وقد زاد هذا التحول فشل الألفى فى الاستيلاء

على دمنهور، وما تبين لصالح باشا من انقسام المماليك ، فإن البرديسى لما رأى ارتباط الألفى بالإنجليزى أعرض عن تأييده لحقده عليه ، ولأنه كان من أنصار الالتجاء إلى فرنسا . كما تبين لصالح باشا عبث الاعتماد على المماليك والركون إليهم ، هذا بجانب تأييد الشعب لمحمد على ، وهو أمر كان فى المقام الأول . كل ذلك جعل الموقف يتحول إلى صف محمد على تباعا ؛ إذ سرعان ما صحت عزيمة صالح باشا على تثبيت محمد على فى الولاية ، بناء على ما رآه فى الموقف فى داخل البلاد ، وقد تم الأمر على هذا فى مقابل أن يؤدى محمد على إلى الباب العالى ٤٠٠٠ كيس ، وأن يجعل ابنه إبراهيم رهينة بالآستانة على هذا المبلغ ، وانتهى الأمر أخيراً بورود المرسوم إليه ، متضمناً إبقاءه واستمراره على ولاية مصر ، « حيث أن الخاصة والعامة راضون بأحكامه بشهادة العلماء وأشراف الناس » .

فشلت المؤامرة وأقلع صالح باشا من أبى قير فى أكتوبر سنة ١٨٠٦ ، وفشلت الآمال البريطانية التى نشطت من أجلها عن طريق الضغط السياسى ، ولكن لم تنفض بريطانيا يدها رغم هذا كله من الموضوع ، ولم ييأس الألفى أن يأمل فى عون الإنجليز ، فاستمر متصلا بقنصل انجلترا فى مصر ، يطلب من دولته

النجدة فى محاربة خصمه ، وظلت بريطانيا عند وعدها الأول له ، تحاول تحقيقه من خلال نظرتها لرعاية مصالحها فى مصر ، فى التمتع بوحدة النفوذ فيها ، وإذا كان حرصها على ذلك منبعثاً من خوفها وقوع البلاد فى قبضة الفرنسيين فقد كان لتغيير الموقف الدولى إذ ذاك أثره الأكبر فى تغير وسائل علاجها لتنفيذ أغراضها فى البلاد ، فلما توطدت العلاقات بين تركيا وبين فرنسا تهددت مصالح بريطانيا فى الشرق ، وساءت بالتالى العلاقات بين تركيا وانجلترا ، عندئذ تهيأت الظروف — فى ظل الرغبة الملحة — لأن تنهج بريطانيا إزاء مصر والمماليك اتجاها أكثر جديا عما فعلته من قبل ، من أجل صيانة مصر من النفوذ الفرنسى ، وضمان سيادتها على البلاد ، وذلك بإنفاذ حملة فريزر عام ١٨٠٧ .

— ٢ —

تجـــدد المطامع البريطانية

وحملة فريزر على مصر (١٨٠٦ — ١٨٠٧)

كانت انجلترا من قبل تحاول الاكتفاء بصيانة مصالحها بالحيلولة دون عودة النفوذ الفرنسى وإعادة تنظيم القوة المملوكة ، وتمكينها من السلطة فى البلاد كقوة موالية لها ، عندما كان الموقف لا ينم عن خطر عاجل ، وعندما كانت قادرة على تحقيق أغراضها بالضغط الدبلوماسى تارة والدسائس تارة أخرى ؛ لترجيح كافة نفوذها فى البلاد ، فلما فشلت وتغير الموقف وزاد حرجا ، زاد على أثره حرصها على صيانة مصالحها فى الشرق لاسيما مصر ، فآثرت العمل الحربى ، ترسل أسطولها يهدد الباب العالى من جهة ، ويحاول التأثير عليها لإبعادها عن نفوذ فرنسا عن طريق احتلال الإسكندرية من جهة أخرى . وتحاول الحيلولة بالعمل الأخير دون وقوع مصر فى قبضة الفرنسيين معتمدة على قوة

حلفائها من المماليك ، ثم تتمكن بالتالى — بفضل وجود قواتها فى البلاد والاعتماد على قوة المماليك — بتنفيذ الخطة السياسية التى رمت إليها من قبل ، بتمكين هؤلاء من الحكم ، حتى تضمن مستقبلا ، رعاية مصالحها ؛ لذلك إذا كانت حملة فريزر فى ذاتها جزءاً من التخطيط الحربى البحرى فى البحر الأبيض المتوسط الذى استدعته ضرورة العمل الحربى ، فى استجابة للموقف الدولى المتغير لصيانة مصالح بريطانيا فى الشرق ضد امتداد النفوذ الفرنسى ، فقد كانت الحملة من جهة أخرى وسيلة لغايات سياسية تحققها وتمكن حلفاءها البكوات والمماليك من النفوذ فى مصر من جهة أخرى لضمان نفوذها السياسى عليها مستقبلا ، بهذا لم تكن أهداف حملة فريزر الرئيسية فى حقيقة الأمر هى احتلال البلاد ، إلا فى حدود ما بذله من نشاط قنصل بريطانيا فى مصر لتحوير أغراض الحملة بعد وصولها :

تطور الموقف الدولى :

شاء نابليون أن يثير المتاعب لخصميه روسيا وبريطانيا فى الشرق وبسط نفوذ فرنسا بين ربوعه ، فاتجه يثير المسألة الشرقية أمام

الدولتين ، ويحاول بسط نفوذه على حسابها من خلال دعم علاقته وسياسته بتركيا .

خطب نابليون ود الباب العالى ، ولما كانت تركيا إذ ذاك ترنو إلى التخلص من النفوذ الروسى ، أسرعت فاستجابت إلى نابليون ، فبعث الباب العالى مبعوثه مهيب أفندى إلى نابليون لتوطيد صلات الود والرعاية والتقدير ، وسرعان ما ظهر أثر ذلك عندما تردد الباب العالى فى التصديق على وثائق معاهدة الصلح بينه وبين روسيا ، ومن ثم بدأت المتاعب أمامها فى عدم السماح لسفنها بعبور المضايق التركية ، ولم يقف الأمر عند هذا بل انتهى التقارب بين تركيا وبريطانيا أن امتنعت الأولى عن الإسراع فى تجديد محالفتها مع الأخيرة معتذرة بحلول شهر رمضان، وقد بدأ الرعب — الذى كان سائداً فى تركيا من روسيا — فى الزوال بفضل معاضدة نابليون الذى كان يتمنى إثارة المتاعب لخصميه .

وبدأ عهد النشاط الفرنسى فى الشرق ، وعين سبستيانى سفيراً فرنسياً فى تركيا لتوثيق روابط الصلة والمودة ، وتأكيد عزم فرنسا على تدخلها فى كل ما يمس تقسيم أملاك الإمبراطورية العثمانية .

أما روسيا فقد لاح لها أن بريطانيا ليست جادة فى الشروع فى تنفيذ السياسة المتفق عليها سراً بشأن تركيا ، لكنها أوضحت لبريطانيا أنه فى حالة تدخل فرنسا فى شئون تركيا يجب أن تشرع بريطانيا فوراً فى إرسال أسطولها فى مظاهرة إلى البواغيز التركية الأخرى ، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها بين الدولتين وبين تركيا على أساس جلاء القوات البريطانية عن مصر ، رأت ضرورة جلاء جود نابليون عن إيطاليا . ولكن لم يكن هذا برنامج زارتورسكى الروسى وحده ، فقد كان يدبر ضرورة تدخل روسيا بدعوى مساعدة مسيحي الأتراك وفصل دويلات الدانوب السلافية.

وقام ستروجنوف سفير روسيا فى بريطانيا — بتوضيح سياسته إلى المستر فوكس وزير خارجية بريطانيا على أن يكون هدف سياسته إظهار رغبة روسيا فى المحافظة على أملاك تركيا من أطماع نابليون ، وكان فوكس حذراً لا يود إلا أن يصل إلى عقد معاهدة صلح مع نابليون ، وقد أفهمه السفير الروسى أنه من الواجب الوصول إلى تسوية مسألة التوازن الدولى بين الدول العظمى فى أوربا ، وبين فرنسا ، وعلى الأخص حماية مصر من الاحتلال الفرنسى الذى قيل : إنه هدف بونابرت ، وذلك تأمينا لمواصلات بريطانيا فى الهند ، وكان جواب وزير خارجية

بريطانيا موضحاً بأن موضوع حماية أملاك تركيا ليس عمليا ، وأنه لو فرض وقامت فرنسا باحتلال مصر ، فلا تتعرض الهند لخطر محتمل ؛ ولكنه أراد أن تكون سياسته واضحة ؛ عندئذ كتب إلى سفيره فى بطرسبرج يقول : « إنه إذا تم عقد معاهدة بين تركيا وفرنسا من مقتضاه التصريح للأخيرة باحتلال بعض الأملاك التركية بالقوة ، فقد يصبح من المهم لكل من روسيا وانجلترا التدخل المسلح لمنع ذلك » .

وتطورت الحوادث ورأى أرثنبرت السـفير البريطانى أن ينصح حكومته بإرسال قوة بحرية من بعض السفن ؛ لتهديد الباب العالى ، ثم طلب فى تقريره أن تتولى الأدميرالية إصدار التعليمات بذلك إلى قائد الأسطول فى البحر الأبيض المتوسط ، ثم أثبت فى تقريره أن الأسطول التركى إذا لم يتمكن من الالتجاء إلى مكان يحميه ، وأنه إذا سقطت عاصمة تركيا انقطعت علاقاتها بآسيا ، ولذلك يصبح الطريق إلى الهند فى مأمن .

وشاء الباب العالى عزل كل من ولاة مقاطعتى ولاشيا وملداقيا الموالين لروسيا ، اعتماداً على تشجيع فرنسا ، فتأزم الموقف إذ ذاك ، وثارت روسيا ، وعدت ذلك خرقاً لاتفاقية سنة ١٨٠٢ التى كانت تشترط عدم إجراء تغيير إدارى فى هاتين

المقاطعتين دون مشورة روسيا ، وإزاء ذلك ، تراجعت تركيا ، لعدم وقوف فرنسا فى جانبها فى هذه الأزمة فأعادت تعيين الواليين اللتين عزلتهما وكانا ألد أعدائها ، وظن سفير فرنسا أن فى ذلك حلا كافياً للموقف غير أنه لم يفطن إلى ما كان يرغبه القيصر إذ ذاك من إعادة السماح للأسطول الروسى للدخول إلى المضايق ، إذ لم تكن تهمه كثيراً مسألة فردية لاثنين من اليونان عادا إلى أملاكهما ، وذلك لأن المعاهدة لم تجدد ولم تقطع تركيا علاقتها بفرنسا ، وقبل الاستجابة إلى هذه المطالب الروسية من تركيا بالطريق الدبلوماسى ، كانت جيوش الأمير ميتشلسون قد دخلت إلى ملدافيا ، وبذلك أرادت روسيا أن تجر فى ذيلها بريطانيا للقيام بعمل عدوانى من جانبها ضد تركيا ، وقد ارتكب السفير البريطانى خطأه الكبير ، عندما أراد أن يستدرج الأمير الروسى للانسحاب ، ظنا منه أن ذلك مدعاة لعدم تدخل فرنسا ، بل ولقطع صلتها بالأتراك ، فقد سبب هذا الخطأ طغيان نفوذ فرنسا على الباب العالى ، مع أن بريطانيا كانت تريد العكس ، ورغم وجود سفن الأسطول البريطانى المعقود لواؤها للقائد البحرى لويس ، فقد أعلنت تركيا الحرب على روسيا فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٠٦ ومن ثم أسرعت الحوادث الدولية لتغير الموقف فى بريطانيا إزاء تركيا فتسير فى خطوات

حاسمة لمواجهة الموقف، وقد ألقت هذه الحوادث آثارها على مصر استجابة لهذا الموقف الدولى المتغير فيما انتهت إليه من إرسال حملة فريزر للاستيلاء على الإسكندرية .

فلقد قررت الحكومة البريطانية فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ العمل بالاتجاهات التى كان يشير إليها السفير البريطانى من وقت طويل ، فتقدمت بريطانيا بأسلوب جديد إزاء الموقف فحثت سفيرها على أن يبذل مجهوده لإقناع تركيا باتباع سياسة أفضل ، ثم أبانت له بأن ثمة قوة سترسل لتعزز الموقف ، وتظاهر عروضها عند اللزوم ، كما أوضحت له أنه عند مقدم سفن هذه القوة يجب أن يحيط الباب العالى علما بأنها قدمت إما للقتال أو للدفاع ، وأن الحكم الفصل بين الأمرين هو رهن بما ينتهى إليه مسلك الباب العالى ، ثم دعته يطالب تركيا بإيقاف امتداد النفوذ الفرنسى ، وإلا فستتحطم الصداقة القائمة بين البلدين ، وأن بريطانيا ترغب فقط مراعاة الالتزامات بالضبط فيما يختص بفصل الحاكمين للمقاطعتين السابقتين ، ثم حرية المرور فى المضايق ، ثم طلبت بريطانيا من سفيرها أن يوضح أنه حتى بعد أن تستجاب هذه المطالب سيبقى الأسطول البريطانى ، طالما كان وجوده ضروريا ، لضمان أمن وحماية الباب العالى نفسه ؛ أما إذا أخفقت مساعيه

ولم تستجب هذه المطالب ، فعليه أن ينهى بعثته ، وبهذا يبدأ العمل العدائى بين البلدين ، ثم كلف السفير بجانب هذا أن يتوسط بين تركيا وروسيا فى حالة الحرب القائمة بينهما على أساس الوفاء السريع بالشرطين الاثنين الأساسيين ، وأنه فى حالة رفض وساطته ، عليه أن ينهى بعثته ، وبانتهاء البعثة الدبلوماسية يطلب قائد القوات تسليم الأسطول التركى ومعه إمدادات بحرية كافية ، وله أن يصحب طلبه بالتهديد بإطلاق قنابل الأسطول .

وروى أنه فى حالة رفض الباب العالى ، تصدر الأوامر إلى الجنرال فوكس لاحتلال الإسكندرية بقوة قوامها ٥٫٠٠٠ جندى ، على أن يكون الغرض من ذلك الاحتلال ، ليس احتلال مصر ، ولكن - فقط - لمنع فرنسا من محاولة احتلالها ، ثم العمل على الإبقاء على نفوذ بريطانيا فيها بإيجاد حالة من التفاهم الدائم بين البلدين .

ولقد اشترط أن يكون اختيار قائد هذه القوة ممن تتوفر لديهم فوق صفات الجندية الدبلوماسية الدبلوماسية أيضاً .

حملة فريزر :

أسرعت الحوادث بعد ذلك إلى نهايتها عندما اختمرت

الفكرة فى ذهن بريطانيا لتنفيذ الخطة الحربية .

وبينما كانت الحوادث فى الآستانة تجرى سراعا والسفير البريطانى يقدم إنذاره للباب العالى بما تقدم ، أبحر الأسطول البريطانى من قادس فى يناير سنة ١٨٠٦ بقيادة دكورث .

ولقد رأت تركيا أن الدخول فى حرب مع بريطانيا أمر على نقيض مصالحها ، لذلك أرادت أن تستمهل السفير ، إلا أنه كان ساخطا ، فشاءت الحيلولة بينه وبين الأسطول البريطانى ، فتقرر أن يودع السجن ، لكنه عندما علم بذلك دبر خطة حمقاء للهرب من العاصمة التركية ، فدعا معظم أفراد الجالية البريطانية إلى وليمة على ظهر السفينة اندميون من أجل الترفيه ، وحدث أن غادرت السفينة الميناء فجأة ، وكان الضيوف لا يعلمون من السر شيئاً ، إلا أنها لم تلبث أن وقعت فى كمين أعد لها ، ومن ثم سيق السفير إلى السجن ، وحيل بينه وبين الأسطول البريطانى .

ولما وصل دكورث إلى ميناء تندوس فى ١٥ فبراير كان قد علم بأمر السفير ، فأبرق إلى الجنرال فوكس ليسرع بإرسال القوة البحرية إلى الإسكندرية .

وأبحرت القوة إلى الإسكندرية بقيادة الجنرال فريزر

فى ٦ مارس سنة ١٨٠٧ من ميناء صقلية بقوة صغيرة معتمدة على قوة المماليك وضعف تركيا ، وكان قوامها جنود من المستعمرات البريطانية عددهم ستة آلاف جندى مشكلون فى فرقتين ، ولم يكن من ضباطها من يعرف الشرق ولا أسهم فى الخدمة فيه عدا الجنرال ميد ، ويبدو أن الباب العالى هو ومحمد على كانا يتوقعان هجوما بريطانيا ، بدليل أن الوالى حاول إيفاد حامية من الجنود الألبانيين إلى الإسكندرية ، إلا أن قنصل بريطانيا المستر مست — الذى كان يعلم بأمر هذه الحملة البريطانية وموعد وصولها الإسكندرية — دأب يستدرج الوالى حتى ألغى أمر إيفادها ، ومن ثم قام محمد على إلى الصعيد يحارب المماليك ، ويحاول كسبهم إلى جانبه ، بينما تولى مست تأليب القبائل العربية لتساعده على استقبال الحملة وتسهيل مهامها ، كما كتب للمماليك يعدهم بالأمل المرتقب .

وعلى غير علم — بما يكتبه القدر للحملة الغادرة ودون حساب لاحتمال تغيير الظروف الداخلية ضدها — تقدمت تلك إلى مصر ، لتواجه تحالف الظروف عليها ، وتشهد مصرع الخطة البريطانية التى جدت من قبل لتنفيذها ، وذلك بفضل تكتل المصريين

ووحدتهم صفاً واحداً ، شعباً وجيشاً لمواجهة العدوان البريطانى على مصر .

وقبل أن تلقى الحملة مراسيها فى الإسكندرية بأربعين يوماً كانت بريطانيا قد فقدت صديقها وحليفها الألفى بالوفاة ، فخسرت بهذا عميلا قوى الشأن ، واكتفى الشعب بوفاته ، شر خصم كان مقدراً أن يكون ثغرة قوية فى تماسك وحدته كما خسرت بريطانيا القوة التى كانت تتوقع العون على يديها فى مصر .

كان الألفى ، والحوادث الدولية تجرى سراعا ، ينتظر مجىء العون البريطانى على أحر من الجمر ، ويرقب مجىء هذه الحملة ثلاثة شهور ، وقد طال انتظاره حتى شكا فرسانه وجنـــوده لشدة ما اعترا كل من الجهد ، وهم يعسكرون فى دمنهور ، فلم يسعه فى النهاية إلا أن حمل عصاه راحلا إلى الجنوب مقهوراً ، وكان يأمل أن يجعل من دمنهور معقلا يقيم فيه حتى تأتيه النجدة ، ولكنها تأخرت ؛ فلما تأزم الموقف ونفد صبر من معه ، جانبه إخوانه وعشيرته ، فخذلوه ، فارتحل من البحيرة بجيوشه قاصدا الصعيد ، يملأ قلبه اليأس والقنوط ، فى أوائل يناير سنة ١٨٠٧ وعلى الطريق المشرف على القاهرة ، رنا ببصره إليها متحسرا وكأنما كان يلقى عليها الوداع الأخير ، إذ ذاك وافته المنية فى الطريق

فى الوقت الذى كان الإنجليز يحثون السير فى حماس نحو مصر ، للالتقاء به ، ولكن شاء القدر أن يفصل بين القوتين ، فيؤثر فى مجرى الحوادث إلى حد كبير .

وخسر الإنجليز قبل مجيئهم قوة لا يستهان بها فى عونهم على تحقيق مآربهم ، وقد ترك الألفى وراءه فراغا لم يستطع المماليك ملؤه من أجل ذلك ، فقد تفرقت كلمتهم من بعده وأخذت كفة محمد على تتأهل فى ظل ذلك كقوة موحدة فى وجه الإنجليز ، مات البرديسى فتخلص منه ، و مات الألفى فاستراح منه فصعد على أنقاضهما ، واشتد ساعده ، وكان الشعب يستعد لملاقاة الإنجليز ، قوة بجانب قوة محمد على ، كل يكمل بعضه بعضا ، ولم يكن ذلك الشعب الخانع ، الذى كاد يحطمه تماما العهد العثمانى بل كان ذلك الذى برز فى جـولاته فى الكفاح ضد طغيان الاستعمار الفرنسى وضد الطغاة من الحكام الأتراك .

وقد بدأت الثقة ترتد إليه إثر اختيار حاكمه بنفسه ، وتعبر عن إصراره بصيانة هذه الإرادة ، وباستمرار فى الكفاح من أجلها ، فكان متوقعاً أن يقف ضد الغزاة كما كافحهم من قبل ، وأن يقف بجانب حاكمه الجديد كما كانت وقفته الرائعة من قبل ،

ومن ثم كان الموقف الداخلى فى مصر قبل مجىء الحملة غير ممهد السبيل ولا ميسورا أمامها .

واقترب الطرفان نحو النضال الحربى فى سواحل مصر ، والقدر يحجب عن كلاهما مدى قوة خصمه ، وتتقدم الحملة فى ثقة من عون المماليك واستهتار بالقوة التركية فى مصر دون حساب لتطور الظروف الطارئة ، فلا تحمل على ظهرها سوى قوة محدودة .

وتتهيأ مصر لمقابلة العدوان فتزداد الجبهة الداخلية تماسكا وإن بدت فى البداية هيابة من الغزو ، فقد كان لثمار الالتحام الأول الذى قدر بعد ذلك أن يتم بين ساحة رشيد أثره الأكبر فى استكمال هذا التماسك ورد الثقة إليها فى قوة روحية أعلى .

وبينما كانت الحملة فى طريقها إلى مصر ، كانت مصر تتسمع أنباءها قبل أن تلقى بمراسيها فى الإسكندرية من الرسائل الواردة من الآستانة ، فأخذ الأهالى يستعدون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية من قبل ، فتولى زعيمهم عمر مكرم زعامة هذه المقاومة الشعبية وشرع - كما يقول الجبرتى « فبراير سنة ١٨٠٧ » - أهل الإسكندرية « فى تحصين قلاعها وأبراجها وكذلك أبو قير . . . » وبجانب ذلك أخذت أنباؤها بحكم الطبيعة تؤثر

فى نفسية الشعب فحدث ثمة قلق ولغط ، كما أخذت الأسعار فى الارتفاع .

وبدأت الحملة تلقى بمراسيها فى الإسكندرية ، فشاء أولا الأسطول القيام بعملية استطلاع ، فأقبلت أوائل مارس عام ١٨٠٧ سفينة إنجليزية إلى مياه الإسكندرية دون أن تخبر بأسباب حضورها ، وما لبثت سفينة أخرى أن جاءت الثغر فى ١٤ مارس فاستدعت القنصل الإنجليزى ميست ، وسرعان ما استجاب للأمر لمقابلة من فيها ، ولما عاد أرسل مبعوثه برسائل إلى المماليك فى الصعيد لإخبارهم بقرب وصول الحملة الإنجليزية المرجوة ، واستدعائهم إلى الوجه البحرى كى يكونوا فى عونهم على الغزو ، بعد أن بلغهم آسفين بموت زعيمهم الألفى ، بينما كان محمد على يحاول القضاء على المماليك كقوة بالحرب تارة ومحاولة استرضائهم تارة أخرى باقتسام بعض النفوذ فى البلاد .

احتلال الثغر :

وعادت السفينة الإنجليزية فى ١٦ مارس تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الأخرى وألقت مراسيها بالميناء الغربى، ثم نزل منها ضابطان وطلبا مقابلة محافظ الثغر أمين أغا ، وكانت الإسكندرية

إذ ذاك تمثل فى ذاتها إدارة تركية مستقلة عن إدارة مصر ، وكان حاكمها هو أمين أغا من ضباط الآستانة ، وقد تواطأ مع الغزاة على تسليم المدينة نظير رشوة من المال . وقد أعطاه هذا المال قنصل انجلترا ، فلما قابله الضابطان اتفقا معه على أن يسلم المدينة دون مقاومة ، ولم يكد يطلع يوم ١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الإنجليزية مكونة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الأميرال لويس ، ثم أخذ جنود الحملة ينزلون مساء ذلك اليوم فى الشاطىء العجمى ، ولم يلبث أن زحف الجيش إلى الإسكندرية ، وهناك عسكر الجنود تحت أسوارها وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة أبو قير ، وبعد مضى يومين من مفاوضات صورية بينهم وبين محافظ الثغر ، انتهى الأمر بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه معظم حامية المدينة ، ومن ثم دخل الإنجليز الإسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أية مقاومة،وقد فر جزء من حاميتها إلى دمنهور .

واحتلت الحملة الإسكندرية وكتب القنصل الإنجليزى مست إذ ذاك يقول :

« لو أن محافظ الإسكندرية صمد للقوات مدة ٤٨ ساعة قبل عملية إنزال الجنود الإنجليز إلى البر لما أمكن نزولهم ، لكنه

كان قد مل عسف الحكومة وظلمها ، كذلك لو شاء أهالى الإسكندرية منع هذه القوة من النزول لتم لهم ذلك بإغلاق أبواب أسوارها فى وجوههم ، غير أن أحوالهم كانت شبيهة بأحوال المحافظ من حيث خيبة الأمل لكثرة ما لاقوه من ظلم واضطهاد » .

ولقد كان لهذا النجاح أثره فى إنعاش آماله ، فأرسل بتاريخ ٢٢ مارس خطابا إلى المماليك يطلب إليهم أن يبعثوا إليه سراً برسول يأتمنونه ليملى عليه بمطالبهم ، وكان مست إذ ذاك يحاول جر بلاده إلى احتلال مصر .

موقف الحملة من سكان الثغر :

ومن خلال الرياء الإنجليزى شاءت قيادة الجيش البريطانى أن تكسب ود شعب الإسكندرية ، بعد أن أسلمته الخيانة للغزاة فتقدمت إليه بشروط شاءت أن يلتزم الطرفان بها فيما يتعلق بتحديد العلاقات بينهم ، فاشترطوا مع ساكنيها - كما يقول الجبرتى - شروطاً منها « أنهم لا يسكنون البيوت قهراً من أصحابها بل بالمؤاجرة والتراضى ، ولا ينهبون المساجد ولا يبطلون فيها الشعائر الإسلامية ، وأعطوا أمين آغا الحاكم أماناً على نفسه وعلى من معه

من العساكر . . . . لهم بالذهاب إلى أى محل أرادوه ومن كان له دين على الديوان يأخذ نصفه حالا والنصف الثانى مؤجلا ، ومن أراد السفر فى البحر من التجار وغيرهم ، فليسافر فى حفاوتهم إلى آية جهة أراد ما عدا إسلامبول ، وأما الغرب والشام وتونس وطرابلس وغيرها فمطلق السراح ولا حرج ذهابا وإيابا » .

وكان من شروطهم أيضاً « أنهم إن احتاجوا إلى قومانية أو مال . . . . لا يكلفون أهل الإسكندرية بشيء من ذلك ، وأن محكمة الإسلام تكون مفتوحة تحكم بشرائعها ولا يكلفون أهل الإسلام بقيام دعوى عند الإنجليزى بغير رضاهم والجماعات من أية بنديرة تكون مقبولة عند الإنجليز الموجودين فى الإسكندرية ويقيمون مأمونين برعاية لخاطر أهل الإسكندرية ولم يحصل لهم شيء من المكروه ، من كامل الوجوه . . . . حتى الفرنساوية والجمارك من كل الجهات على كل مائة إثنان ونصف ، وعلى ذلك انتهت الشروط » .

كل ذلك كانت أساليب الإنجليز فى تعبيرهم عن المرمى البعيد من وراء ذلك من محاولة مداراة حقيقة الاحتلال ، والحيلولة دون إشعار أهل البلد بالتغيير بين حالتهم الأولى وما انتهت إليه

تحت حكمهم ، بل وإبراز حكمهم فى صورة بغير ما جبل عليه خلق المعتدين دائماً ! . وذلك من أجل كسب ثقة المصريين وضمان ولائهم لهم ، بهذه الأساليب التى تمثل فى جوهرها معنى الرياء وفى شكلها الأساليب الكفيلة فى رأيهم لتعبئة مشاعر الرضا بين الاسكندرانيين وغيرهم من سكان البلاد .

- ٣ -

موقف الشعب من الحملة

وأخذت أنباء الحملة تترى تباعا من الإسكندرية بعد احتلالها وتختلف فى تفاصيلها ، فتكثر الأشاعات حولها ، فتستمع البلاد إليها دون أن تتثبت من حقيقتها ، حتى استقرت أخيرا فى النهاية أنباؤها فى القاهرة فأدرك كنهها الناس ، ومن ثم بدأ الموقف يتغير لمواجهتها والاستعداد لإيقاف مايحتمل أن ينتهى إليه الاحتلال من زحف إلى داخل البلاد . وكانت رشيد الساحة التى لقيت بريطانيا فيها هزيمتها الأولى على يد الوعى الصاعد للمقاومة الشعبية .

توارد أنباء الحملة :

وردت أنباء إلى القاهرة فى ٢٣ مارس سنة ١٨٠٧ من رشيد عن ضرب الإسكندرية واحتلالها، ولكنها كانت أنباء مجملة لاتوضح حقيقة الموقف تماما ، فأفادت أن الإنجليز قد نزلوا إلى الثغر ودخلوه. فاشتبه الأمر وأخذت الأفكار فى التبلبل ، وكان قنصل فرنسا فى مصر دروفيتى قد رحل إلى رشيد ، عندما وردت

سفن الإنجليز إليها فلما بلغه نزولهم إلى البر رحل إلى القاهرة ، وأبدى رغبته فى السفر إلى الشام ومعه باقى الجالية الفرنسية فى مصر .

واستمرت الشائعات حول الغزو تتناقلها الألسن دون تثبت من حقيقة الموقف ، وكان محمد على إذ ذاك يحارب المماليك بالصعيد، وقد وردت أنباؤه إلى القاهرة بانتصاره عليهم واستيلائه على أسيوط فاختلطت أنباء النصر مع شائعات الحملة ، وتلهى الناس قليلا بما سمعوه من قصف المدافع ابتهاجا بالنصر من القلعة والأزبكية مدة ثلاثة أيام كاملة .

ومضت الشائعات فى سبيلها رغم هذا حول الغزو فقيل : إن الإسكندرية ممتنعة على الإنجليز ، وأنهم نزلوا إلى رأس التين والعجمى ، فخرج إليهم أهل البلاد والجنود فحاربوهم حتى أجلوهم، وقيل غير ذلك حتى أسرفت الشائعات فى القول حول وصف الموقف دون معرفة ماجد بالإسكندرية التى كانت إذ ذاك قد أعلنت تسليمها للغزاة ، وفر الكثير من جنودها الألبان والأتراك إلى داخل البلاد ، وقد استمر هذا الوضع على هذا الخلط والشائعات عدة أيام فتضاربت إزاءها المشاعر بقدر تضارب حقائقها .

وبلغت هذه الأنباء أحد زعماء المماليك فى الفيوم وهو ياسين بك ، فأخذته نزعته الدينية ، فتحرك شمالا حتى بلغ دهشور فأرسل للسيد عمر مكرم والقاضى وغيرهما ، أنه تحرك بعد أن أخذته الحمية الإسلامية — ليواجه الغزو البريطانى وفى صحبته ستة آلاف من الجند ليرابط بهم بالجيزة أو قليوب ، ويجاهد بهم فى سبيل الله ، «فكتبوا له إخبارية » مضمونها : إن كان حضوره بقصد الجهاد فينبغى أن يتقدم بمن معه إلى الإسكندرية وإذا حصل له النصر تكون له اليد البيضاء ، فإنه لا فائدة باقية فى الجيزة أو قليوب ... » وقد خشى المسئولون أن يكون وراء هذه النزعة مطامع خاصة ، فى الجيزة وغيرها ؛ لذلك وضعت خطة تحول دون تنفيذ سيره ومآربه .

فى ذلك اليوم الذى بدا فيه هذا النشاط « ٢٧ مارس » تلقت القاهرة من صحيح الأنباء ما أوقفها على جلية الموقف من استيلاء الإنجليز على الإسكندرية وامتلاكهم قلاعها وسكنى قائدهم بيت القنصل .

وتسمع الناس لأنباء الغزو فى أضوائها الجديدة ، وما انتهت إليه علاقة الإنجليز فى الثغر مع الأهالى ، من شروط شاء

الاحتلال تحديد علاقته بهم ، ولقد كان لثبوت حقيقة الغزو آثارها فى مجرى المشاعر العامة بين المصريين .

حالة الجنود العثمانيين :

بدا تأثير ذلك بين الجنود خوفاً ووجلا بأعمق مما بدا فى غيرهم ، وكان هؤلاء خليط من الأرناؤود والترك من المرتزقة وغير النظاميين فئة لا تهمها مصالح البلد إلا ما تؤديه خدمة لأغراضها فى إطار خدمتها فى سلك الجيش العثمانى ، دون مصالح الأهالى أو مصالح مصر المباشرة فلم تكن تلك إذ ذاك وطناً لهم يرتبطون به ارتباطاً روحياً ، فلما علموا بالغزو امتلأت قلوبهم رعباً،وآثروا - والمحنة على أشدها - ترك المصريين وحدهم فيها،وإن بدت آثار ذلك الغزو بين الشعب ، إلا أنها لم تدفعه بهم إلى التفكك ونسيان الواجب كما بدت من هؤلاء . وقد كانت مصر وطنهم الذى احتواهم دهراً ، وعاشوا بينه مندمجين فى حياة واحدة ، وقد جمعتهم من قبل وحدة الكفاح ضد الفرنسيين والإنجليز والأتراك ، فليس بدعا أن يصمد الشعب ويفر غيره من الجنود ذعراً أمام حقيقة الاحتلال .

فر كثير من الجنود الألبان منذ أن ابتليت الإسكندرية

بالاحتلال إلى داخل البلاد واحتوت دمنهور عدداً كبيراً منهم .
فلم يسع شعب هذه البلدة عندما أثر ذلك على حاميتها حتى همت بدورها بهجرة هذا البلد ، إلا أنهم واجهوهم باللوم والتقريع ، فلما بلغ دمنهور جنود الإسكندرية الفارين أثاروا الرعب فى قلوب حاميتها ، عندئذ انزعج كاشف دمنهور هو ومن معه من الجنود وعزموا على الخروج منها ، فلما أحس الأهالى خاطبهم أعيانهم قائلين لهم : « كيف تتركونا وتذهبون ، ولم تروا منا خلافا، وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفى من أعظم المساعدين لكم ، فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا فى حروب الإنجليز ، ولكنهم رغم هذا لم يستمعوا إليهم لشدة ما داخلهم من الخوف ، فحملوا متاعهم ومعهم الكاشف ، وهاجروا من البلدة إلى فوة على عجل ، فلم يسع أهل البلدة إلا أن أبلغوا ذلك إلى زعيم مصر إذ ذاك عمر مكرم شاكين فى ألم و سخرية .

يقول الجبرتى : « ولما شاع احتلال الإسكندرية داخل العسكر والناس وهم عظيم ، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام ، وشرعوا فى قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التى أعطوها للمتضايقين والمستقرضين بالربا ، وإبدال ما بأيديهم من الدراهم والقروش والفرانسة التى يثقل حملها بالذهب البندقى

والمحبوب الزر لخفة حملها حتى أنها زادت فى المصارفة بسبب كثرة الطلب لها ، وبلغ صرف البندقى المشخص الناقص فى الوزن أربعمائة وعشرين نصفاً، والزر مائتين وعشرين ، والفرانسة مائتين واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك وسعوا فى مشترى أدوات الارتحال والأمور اللازمة لسفر البر وفارق كثير منهم النساء ، وباعوا ما عندهم من الفرش الأنيقة » .

موقف محمد على فى الصعيد :

توغلت أنباء الغزو إلى قلب الصعيد فتصل أنباؤها إلى محمد على كما وصلت رسائل الإنجليز إلى زعماء المماليك فيتردد صداها بين جوانح الجميع تثير فيهم انفعالات متضاربة .

وإذ تترك آثارها هما ورعبا فى نفس محمد على ، فقد بدت بالتالى بين المماليك منعشة لآمالهم تملأ قلوبهم بالرجاء لتحقيق مآربهم فى البلاد ، وقد قربت الأحداث بين هذين الطرفين المتخاصمين ، فأخذ محمد على يعمل لمصالحهم وأخذ هؤلاء فى فرض شروطهم عليه ، واحتدمت النزعات بين الطرفين فى شكل مغالبة، يقوم محورها على رغبة كل فى نيل مآربه على حساب خصمه .

كان محمد على يعلم مقدما من الباب العالى باحتمال غزو الإنجليز

مصر عندما هم بالتوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك وإخضاعهم بالقوة ؛ ليتفرغ لما يحتمل أن يحدث ولكنه لم يفته مع هذا أن يستخدم المصالحة أولا لبلوغ هدفه عند اللزوم ، إلا أنه آثر فى البداية المضى فى الحرب معهم حيث لم يجد ما يدفعه للتعجيل باستخدام أساليب المصالحة .

طلب وهو بالصعيد ثلاثة مشايخ من القاهرة للتأثير عليهم من خلال النزعة الإسلامية ؛ ليكفوا عن الحرب ، ويقفوا معه فى المحنة فى مصالحة بين الطرفين بينما كان يركز اهتمامه على أداة الحرب لإخضاعهم .

فوصل المشايخ إلى ملوى وهناك استأذنوه فى الذهاب إلى ما أتوا إليه للسعى للصلح ، ولكنه تركهم فى ملوى ، وذهب إلى أسيوط وأودع الجماعة بمنفلوط ، ثم تلاقى مع الأمراء وحاربهم حتى ظهر عليهم ، وعند ذلك حضر المشايخ المذكورون فأرسلهم إلى الأمراء ، وكانوا بالجانب الغربى بحماية ملوى، فتفاوضوا معهم فيما أتوا بسببه . ولما كانت الثقة قد تحطمت بين المماليك ومحمد على فقد ترددوا فى الأمر فى البداية وزادهم فى الأمر ترددا شعورهم بالقرب من مساندة الإنجليز لهم لتحقيق مراميهم . إذ ذاك أجابوا على رسل محمـــد على قائلين : « كم من مرة يراسلنا

فى الصلح ثم يغرر بنا ويحاربنا ، مفتقدين أمامهم مخالفته لأكثر الشروط التى عقدت بينه وبينهم . ثم اختلفوا فيما بينهم وتشاوروا فى الأمر . ولم يكن هؤلاء متماسكين فى الرأى تماما ، فلما علم محمد على بأنباء احتلال الإسكندرية وإرسال رسلهم إلى المماليك بالوجه القبلى ارتبك فى أمره،ومن ثم أسرع يحث خطى الصلح ، ويمد يده مضطرا فى سخاء لاسترضائهم ، وقد ثبت فى نفسه كما يقول الجبرتى : « استيلاء الإنجليز على الديار المصرية » . وكان قد اعتزم على الهجرة إلى الشام . وكان يتوقع سرعة مجيئهم إلى القاهرة .

بين البكوات المماليك :

وبينما كان محمد على يبدو مهموما إزاء أنباء الإسكندرية كانت رسائل الإنجليز تفيض على المماليك بالبشر والرجاء . وقد اختلفت آراؤهم حول الموقف فأخذت بعضهم النزعة الدينية حتى أحجم عن تلبية نداء الإنجليز ، ولكن كان جمهورهم يرى فى الأمر فرصة قلما تعوض ؛ لتحقيق مآربهم ولكن فى تردد مخافة لومهم من سكان البلاد لانضمامهم إلى أعداء الدين كما كانوا يعتقدون .

يقول الجبرتى :

« فلما وصلت المماليك رسل الإنجليز اختلفت أراؤهم وأرسلوا إلى عثمان بك حسن غير مرة ، يستدعونه للحضور : فامتنع قائلا : « أنا لا أنتصر بالكفار » وقد وافقه على رأيه عثمان بك يوسف . أما سائر الجماعة فقد اختلفت أراؤهم وهم إبراهيم بك الكبير وشاهين بك الراوى وشاهين بك الألفى وباقى الأمراء .

ومهما يكن الأمر ، فقد كان كل اهتمامهم رعاية مصالحهم ، وقد رأوا السير فى الصلح مع محمد على مع مراقبتهم الموقف حتى ينجلى بينه وبين الإنجليز ، على أن يتباطئوا فى تنفيذه ؛ ليتمكنوا فى النهاية من إعلان ولائهم لمن يصبح فى يده القدرة على تحقيق هذه المرامى .

واجتمع المشايخ بهم للمرة الثانية، فدار بين الطرفين جدل لايعبر عن الحقيقة بقدر تعبيره عن مغالبات لانتزاع كل حقه على حساب الآخر ، فلما تساءل المماليك عن المراد بالصلح كان جواب المشايخ أن المراد منه هو راحة الطرفين ورفع الحروب واجتماع الكلمة ، ولكنهم أضافوا قولهم لاستجلاء الموقف ومحاولة إقناعهم بإثارة النزعة الدينية قائلين :

« لا يخفاكم أن الإنجليز تخاصمت مع سلطان الإسلام وأغارت

على ممالكه وطرقت ثغر الإسكندرية ودخلتها وقصدهم أخذ الإقليم المصرى كما فعل الفرنساويون ».

غير أن ذلك لم يعجب زعماء المماليك وعدوه مجاوزا الواقع فشاءوا تصحيح موقف الإنجليز كما بدا فى ظنهم قائلين بأن « الإنجليز قد أتوا باستدعاء الألفى لنصرتنا، عندئذ أجاب المشايخ:

« لاتصدقوا أقوالهم فى ذلك وإذا تملكوا البلاد لايقدر على أحد من المسلمين ترحالهم ». ثم حاولوا المقارنة بينهم وبين الفرنسيين ليزيدوهم نفورا من الإنجليز فاستطردوا يطرقون الناحية الدينية أمامهم فقالوا :

« ليسوا كحال الفرنساوية فإن الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية ، وأما هؤلاء الإنجليز فإنهم نصارى على دينهم . . . ولا تخفى عداوة الأديان ولا يصح ولاينبغى فيكم الانتصار بالكفار على المسلمين ولا الالتجاء إليهم».

وأخذ رسل محمد على من المشايخ ينصحونهم فيمعنون فى النصح من خلال الفكرة الإسلامية، ويذكرون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وكان يصحب المشايخ مصطفى أفندى كتخداه قاضى العسكر يحادثهم باللغة التركية ويترجم لهم ذلك .

وقد جاء رد المماليك عليهم فى ذلك يدل على وعى ذاتى

لمصالحهم وفهم عميق لشخصية محمد على وفطنته الماكرة التى تستهدف فى رأيهم وفى واقع الأمر الحيلولة دون تحالفهم مع الإنجليز ضده . وقد أفصحوا عن مدى ثقتهم لمحمد على ونواياه إذ قالوا :

« كل ما قلتموه وأيدتموه . . نعلمه » ثم استطردوا يبدون تخوفهم منه على ضوء العلاقات السابقة بينه وبينهم، فهو فى رأيهم « غدار لا يفى بعهد ولا وعد ولا يبر فى عين ولا يصدق فى قول ، وقد تقدم أن يصطلح معنا على أثر ذلك يأتى لحربنا ويمنع عنا ما يأتى إلينا باحتياجاتنا من مصر ، ويعاقب على ذلك من يأتى من الباعة والمتسببين إلى الناحية التى نحن فيها ، ولا يخفا كم أنه لما أتى القبودان ومعه الأوامر بالرضا والعفو الكامل عنا والأمر له بالخروج . فلم يمتثل وأرسل إلينا وخدعنا ، وتحيل علينا بإرسال الهدايا . وصدقناه واصطلحنا معه ، فلما تم له الأمر قدر بنا وما مراده يصالحنا إلا تأخرنا عن ذهابنا إلى الإنجليز . فلا نذهب إليهم ولا نستعين بهم . وإن كل مراده يعطينا بلادا يصالحنا عليها . . فها هى البلاد بأيدينا وقد عمها الخراب باستمرار الحروب من الطرفين، وقد تفرق شملنا ، وانهدمت دورنا ولم يبق لنا ما نأسف عليه أو نتحمل المذلة من أجله ، وقد مات

إخواننا ، فنحن نستمر على ما نحن عليه حتى نموت عن آخرنا ويرتاح قلبه من جهتنا » .

جاء رد المشايخ عليهم يعبر عن رغبة ملحة لاستدراجهم للصلح رغم هذا ، بدافع ظروف الموقف وحرجه ، فقد قالوا كمن يأسف عما حدث وفى شكل استعطاف : « هذه المرة هى الأخرى . وليس بعدها شروط حرب بل بعدها الصداقة والمصافاة ونعطيكم كل ما طلبتموه من بلاد ، ولو طلبتم من الإسكندرية إلى أسوان لا نمنع ذلك بشرط أن تكونوا معنا بالمساعدة فى حرب الإنجليز ووقعهم على البلاد . وأيضا تسيرون بأجمعكم من البر الغربى . . والباشا وعساكره من البر الشرقى . وعند انقضاء أمر الإنجليز ورجوعكم إلى بر الجيزة نعقد مجلس الصلح يحضره المشايخ والنقيب والرجا قلبه وأكادبر الفكر . وإن شئتم عقدنا مجلس الصلح بالجيزة قبل التوجه لمحاربة الإنجليز . ولا شر بعد ذلك أبدا فانخدعوا لذلك وسار الفريقان إلى جهة مصر » .

وإذ تنجح محاولات محمد على فى تدارك الموقف مع المماليك استجابة للظروف إلى حد كبير فقد كان لنشاط قنصل فرنسا فى مصر المسيو دورڤيتى آثارها أيضا فى استمالة هذه الفئة لكشف عون الإنجليز ، إذ أرسل إليهم المسيو مانجين ينصحهم ألا ينحازوا

إلى جانب الإنجليز ، وقد رضوا بالصلح ولكن فى غير إخلاص وفى تطلع نحو عون الإنجليز .

بين الشعب :

وبينما كان هذا التفاعل بين هذه الشراذم يستشرى فى النفوس طمعا فى الهيمنة على النفوذ فى مصر كان الشعب من وراء هؤلاء يشعر بالخطر فيستعد له تحدوه — كما كان نهجه من قبل — الثقة والشعور بوحدة المصير والرغبة لصيانة مقومات حياته . تلك الأصول القومية التى كانت إذ ذاك تأخذ فى النمو فى إطار الفكرة الإسلامية وقد عرف من قبل سبل الكفاح والنضال .

غدت رشيد تعد نفسها لمواجهة الإنجليز ونشطت القاهرة تتهيأ لذلك نفسيا وعمليا ، ودمنهور ترنو الحوادث بعين الحرص ، بعد أن هجرها أخلاط الجنود ، فى ثقة دون أن تهتز أمام الحوادث وحدها ، وقد ربط هؤلاء ومن علم من الشعب بأمر الحملة شعور واحد لغاية واحدة .

واقترب الاتجاهان من الالتقاء والتلاحم ، الاتجاه الشعبى الصاعد فى مشرق مصر الحديثة والاتجاه الاستعمارى الغاصب وكانت ساحة اللقاء بين شعب أعزل إلا من الإيمان بحقه وجيش إنجليزى مسلح بعتاده الحديث — هى رشيد .

— ٤ —

الزحف نحو رشيد

وهزيمة انجلترا الأولى

بينما كان المصريون يفكرون فى تدبير شئونهم ، ومشاعر محمد على والمماليك تحتدم بحثا وراء رسم خيوط المصالحة كل وفق أهدافه . كان الإنجليز فى الإسكندرية يفكرون فى تعزيز نجاحهم الحربى فيها بامتداد الغزو شرقا حتى رشيد . وقد كان وراء هذه الخطة التى يسأل عنها القنصل مست أمام التاريخ . رغبة ملحة منه لاستدراج بلاده لاحتلال البلاد لتزداد بهذا تمكنا من تنفيذ الخطة السياسية التى سعت إليها بريطانيا من قبل . وضمان مصالحها فيها رغم أهداف الحملة المحدودة .

أنعش نجاح الحملة الأولى بالاستيلاء على الإسكندرية ، القنصل مست ، فبعد أن أرسل بتاريخ ٢٢ مارس خطابا إلى المماليك يستدرجهم لمعاونة الإنجليز بشتى ضروب الإغراء . أتبع ذلك بنشاط آخر شاء به جر بلاده لاحتلال مصر .

فقد حاول إقناع القائد الإنجليزى فريزر بإرسال قوة

من الجنود الإنجليز على النيل باحتلال رشيد . محاولا بهذا إنعاش الأمل فى قلوب المماليك وطمأنتهم بقرب تحقيق آمالهم واستدراجهم لمعاونة الحملة على تحقيق ما كان يصبو إليه هذا القنصل من أغراض استعمارية على حساب مصر . وكان هذا يثق فى قوة المماليك ويرجو الخير على يديه .

ولكى يؤثر على فريزر لإنفاذ الحملة إلى رشيد واحتلالها استخدم الغش والخداع وسائل للإقناع تبين له فى تقرير مطول مدى الحرج الذى يحيط بالجيش الإنجليزى فى الإسكندرية إذا لم يتقدم باحتـــلال رشيد . فلم يعد فى رأيه فى مدينة الإسكندرية كلها إلا التموين الذى يكفى أهلها يوما واحدا فإذا لم يقم على الفور باحتلال رشيد ، عرض أهل الإسكندرية وجنوده للمجاعة . ولم يلبث فريزر أن صدق ما أنبأه به ذلك القنصل . فهم بإعداد حملة وأمرها بالتحرك شرقا لاحتلال رشيد ، دون ما تدبر ولا دراسة عميقة للموقف ولو كان هذا القائد فى مصر عام ١٨٠١ لعلم أن القائد الفرنسى مينو قد قاوم حصارا مدته سبعة أشهر ، قوته أكثر من سبعة آلاف جندى بريطانى ، وقد أغلق فى وجهه ميناء الإسكندرية وكان إذ ذاك فى موقف لا يتمكن من الحصول على أية إمدادات من البحر

كما هو متاح للإنجليز ولكن كان قصر نظر فريزر هو الذى مهد مست أن يغشه ويغرر به حتى هم بإعداد هذه الحملة التى لاقت فيها بريطانيا هزيمتها .

وقبل أن يتحرك الجيش تلقى من الأنباء فيما كتبه إليه قنصل بريطانيا فى رشيد المستر بترتش ما أوقفه عن حال مصر ومستوى قواتها المحاربة . وبعد أن درس الموقف صحت عزيمته على احتلالها فجهز حملة قوامها ألفان من الجنود ، وعهد على رأسها الجنرال ديكوب ثم أمرها بالتحرك لاحتلال رشيد .

الزحف نحو رشيد :

سار هذا الجيش بقيادة من الإسكندرية يوم ٢٩ مارس فقطع المسافة بين البلدين سائراً على مسطح من الرمال تعتوره تلال كثبانية استنفدت الكثير من قوى الجيش فى تحركه بعتاده وخيله فبلغ رشيد فى اليوم التالى ومن ثم أخذ يتأهل لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس .

استعداد رشيد :

كان فى رشيد إذ ذاك حامية تبلغ ستمائة جندى تحت إمرة

محافظها على بك الشجاع ، فاعتزم حماية المدينة من الغزاة غير مستند إلى قوة هذه الحامية الصغيرة فحسب، بل على المقاومة الشعبية المدنية ، وجد المحافظ فى الاستعداد للقتال ضد الغزاة ، وشاءت المدينة الباسلة أن تضطلع بالدفاع وحدها . فتفتدى الشعب كله ولم تطلب من القاهرة عونا ، ولم تنتظر أمراً بالدفاع عنها ، بل انطلقت تدبر شئونها بنفسها فى ثقة كبرى لتكتفى على الأقل شر عبث الجنود الألبان والترك الذين اشتهروا بذلك فى القاهرة ، وقد كانوا لفيفاً من أخلال السلطة العثمانية الأرناؤوط والدلاة وغيرهم .

خطة رشيد :

ووضعت رشيد الخطة ، فأمر حاكمها بإبعاد مراكب التعدية فى رشيد إلى الشاطىء الشرقى للنيل ، كى يقطع خط الرجعة على احتمال ارتداد جنود حاميته إلى هذا الشاطىء إذا ما سولت لهم أنفسهم ذلك ، ولكى يملأ نفوسهم عزماً على الدفاع . فلا يسلموا للعدو كما سلمت حامية الإسكندرية ، وبهذا ركز مشاعرهم حول الاستبسال فى الدفاع بعد أن أصبح النيل من ورائهم والعدو أمامهم ثم أمر الحامية إلى التراجع داخل

المدينة وأن يتحصنوا والأهالى بالمنازل فى استعداد للقتال على ألا يبدأ ذلك إلا بعد أن تصدر إليهم الأوامر بإطلاق النار .

هزيمة الجيش الإنجليزى :

تقدم الإنجليز ولم يجدوا ثمة مقاومة خارج رشيد وقد بدت وكأن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها أسوة بما حدث بالإسكندرية ، فتوغلوا فى المدينة ودخلوا شوارعها وتحسسوا جوانبها فزادوا اطمئناناً . عندئذ شاءوا التخلص من متاعب السفر فانتشروا فى الطرق والأسواق بحثاً وراء أمكنة يستريحون فيها ، ولكن لم يدم لهم الأمر طويلا إذ لم يشأ حاكم المدينة أن يتركهم ينعمون بالراحة ، فما كادوا يستقرون حتى أصدر ذلك أمره بإطلاق النيران على هؤلاء الغزاة . ومن ثم انهال عليهم الرصاص من الأهالى من كل حدب وصوب من النوافذ والأزقة ومن الأسطح ، فلما فوجىء العدو بهذا الرصاص المنهمر عليهم بعث فى قلوبهم الرعب فألقوا ما بأيديهم من أسلحة ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفت إليهم وأخذ الكثيرون يسقطون صرعى أمام هذه المقاومة التى دهمتهم فى حماس وعنف ، حتى قتل القائد الإنجليزى ويكوب كما قتل معه كثير من ضباطه ، ولاذ نفر

من الإنجليز بالفرار موثرين العافية على النضال ، بينما فر لفيف من الأحياء فى حالة من اليأس متقهقرين نحو الإسكندرية عن طريق « أبوقير » .

وهكذا تنتهى المعركة الحربية بهزيمة الجيش الإنجليزى وقد بلغ عدد قتلاه ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحاً أما الأسرى فقد بلغ عددهم ١٢٠ أسيراً .

وقد استطاع الأهالى التعبير عن مشرق جديد للشعب بدت بذوره من قبل وكان اتجاها صاعدا من طليعة الروح القومى وقد تجلى فى هذه المعركة كما تجلى من قبل فى كفاح الفرنسيين فمثل محورا من التضامن والتساند والشعور بوحدة المصير والثقة بالنفس ، وكانت معان تدور كلها فى إطار الفكرة الدينية وقد تجلت صفحة مشرقة فى تاريخ الكفاح الشعبى ضد الغزاة فى مصر .

أنباء النصر :

بلغت أنباء المعركة الإسكندرية وكان قائدها فى شوق لسماعها ولما لم يكن يتوقع أن تنتهى بهذه النهاية المؤسفة ، فقد أسف لسماع أنبائها ، وما لحق جنوده من الهزيمة ، وقد وصف فريزر

هذه المعركة بأنها كانت : معركة غير متوقعة وكارثة فادحة حلت بقواته .

وارتدت أنباء المعركة على سائر الشعب فأحسوا بغبطة النصر وأنعشت أنباؤها الآمال وبعثت فى الجميع الرجاء .

الجنود النازحة ترتد إلى أوكارها المقفرة فتنتشى بالأمل وتطمع فى البقاء ومداومة القتال ، والشعب الصامت يزداد ثقة على ثقة ، فيحس بتدفق الحياة فى جسمه ، والنسيم الفاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس بشرى المشرق الجديد ، وطيوف النصر تمس القلوب فتهفو وتختلج وكأنما أصبحت رشيد زهرة تفوح وطلاقة تفيض على من حولها بالبشر والبهجة ، وقد ارتدت الطمأنينة إلى النفوس وأخذت تمتلىء بلون جديد من الحماس .

أنعشت هذه الأنباء جنود حامية دمنهور الذين فروا من قبل فى جبن مع كاشفهم منذ دخول الإنجليز الإسكندرية ، فدفعتهم إلى العودة إلى دمنهور ، وهم يشعرون بالطمأنينة ، وأخذت الأنباء تنتشر والسعاة ينقلونها إلى القاهرة فاستمع سكانها إلى هذه الأنباء مغمورين بالفرحة حتى كادوا لا يصدقون أنباء رشيد لفرط ما بلغته من نتيجة حاسمة ، يقول الجبرتى : « فضربوا

مدافع وعملوا شنكا ، وخلع كتخدا بك على السعاة الواصلين وأسرع المبشرون من أتباع العثمانيين وبعض القواصة الأتراك بالسعى إلى بيوت الأعيان ويبشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش والخلع » وتقبلت القاهرة الأنباء بالبشر والحماس فقد أنزل النصر هيبة الحملة فى نفوسهم تلك الهيبة التى جاءتهم من شهودهم انتصارات الإنجليز على الجيش الفرنسى فى مصر وعلى الأساطيل الفرنسية فى البحار ، فأخذ الشعب يزداد ثقة بنفسه وتحفزاً إلى الاستمرار فى المقاومة ، فنادى الناس بالجهاد وتدفق المتطوعون إلى القاهرة وغيرها .

وإذا كان من الطبيعى أن تنتهى الأنباء بالبهجة فى نفس محمد على فقد كان من الطبيعى من ناحية أخرى أن ترتد فتملأ قلوب المماليك حسرة على ما أصاب حلفاؤهم وهم يتصالحون مع محمد على ، ويحاولون فرض الشروط عليه .

الأسرى فى شوارع القاهرة :

واستمع الناس إلى الأنباء وكأنهم كانوا على موعد من شهود موكب الأسرى يشق شوارع القاهرة ليروا بأبصارهم حقائق هـــذه الأنباء وشهودها ، وحملتهم السفن من رشيد إلى القاهرة فمروا فى شوارعها ثم استقروا فى القلعة وكانت إذ ذاك

بناء احتوته تلال المقطم ميراثا شهد المجد من عهد صلاح الدين ، يمثل طابع العصور الوسطى ويستقبل عهده الحديث بإشراقة شعب يستيقظ من سباته ويفيق من غفلته ويجدد فى كيانه وكان يوما مشهودا كما يقول الجبرتى .

« فلما كان يوم الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ (أبريل سنة ١٧٠٧) أشيع وصول رؤوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم ، تطلعوا إلى البر وصحبتهم جماعة العسكر المعسكرين معهم وأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم وسط المدينة ومنهم فسيال ضابط كبير وآخر كبير السن وهما راكبان على حمارين ، والبقية مشاة فى وسط العسكر ورؤوس القتلى معهم على نبابيت وعدتها أربعة عشر رأسا والأحياء خمسة وعشرون ولا يزالون سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة . وفى يوم الاثنين وصل أيضاً حملة من الرؤوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأسا وثلاثة عشر أسيرا ومنهم جرحى » .

— ٥ —

عودة العدوان البريطانى على رشيد
وهزيمة انجلترا الساحقة

وانتهت معركة رشيد الاولى بهزيمة الجيش البريطانى ، هزيمة ساحقة وانتصار المقاومة الشعبية انتصاراً مؤيداً ، وقد شعر الطرفان عقب المعركة بمشاعر متضاربة حفزتهما نحو لقاء اخر والتحام أشد انتهى بنتائج حاسمة ، رفعت من شأن مصر المكافحة وقضت على ما عقد من رجاء وراء الحملة البريطانية .

شعر الإنجليز بالكبرياء الجريح وشعر قنصلهم ، مست النذير الهادف إلى القضاء على خطته التى سير من أجلها الحملة الاولى على رشيد فثبتت النية على الانتقام ومعاودة العدوان على رشيد .

وشعر المصريون بالثقة تتدفق فى نفوسهم وبالأمل يشد عزائمهم للاستعداد فى كل مكان لمقابلة العدوان والإجهاز عليه بعد أن تواردت النيات السيئة للحملة وضوحا .

موقف الشعب :

أخذ الشعب يستعد فى حماس رتيب ، وكان استعداده ذلك من أجل المعركة الفاصلة ، وكانت القاهرة الرأس المدبر للمقاومة

الشعبية والعين الساهرة على مؤازرتها بالاستعداد العسكرى عندما تجد الساعة . وقد كان الاستجابة منها منذ أن وردت أنباء المعركة الأولى أن استنفر الشيوخ ، وفى مقدمتهم السيد عمر مكرم ، أهلها إلى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد فى حث الناس على الجهاد فأقبلوا على الدعوة متطوعـــين تحت لواء المقاومة الشعبية وكان تطوع الشعب تلقائياً يعبر عن استعداد روحى وشعور بالتضامن وحرص على صيانة مقومات الحياة ، وكان المتطوعون يذهبون كل يوم إلى أطراف المدينة ، يعملون فى حفر الخنادق وإقامة الاستحكامات شمالى القاهرة لصد عدوان الإنجليز إذا ماحدث وجاء هؤلاء عن طريق شبرا ، وقد بادروا إلى العمل فى ذلك بزعامة عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار ، ثم يعودون إلى أعمالهم عند الظهر .
وكان عمر مكرم يذهب إلى حيث يشتغل العمال فى إقامة الاستحكامات فيثير حماسة الجماهير ، وكان ينبه على الناس ، ويحضهم على حمل السلاح والتأهب للجهاد ضد الإنجليز الغزاة ، ثم دعا الأزهريين إلى المشاركة فى القتال ، ولم ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب ، بل رجال جهاد وقتال ، وما لبث هؤلاء أن أذعنوا للدعوة ولبوا نداء الجهاد والاستعداد للقتال ، تاركين

ساحات دروسهم ، وكان الشعب فى زعامته دائب الحركة والتفكير ، فى تدبر الموقف ودراسته إبان غياب محمد على فى الصعيد ، وكانت القاهرة تعقد الاجتماعات وترسم الخطط بروح تنم عن أصول قومية تستنبت نباتاً حسناً لتشرق فيما بعد وتستضىء بها مصر الحديثة .

يقول الجبرتى يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة من أجل التشاور ودراسة الموقف ورسم ما يجب تنفيذه :

« وفى يوم الثلاثاء (٢٨ محرم) حصلت جمعية ببيت القاضى وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ، وباقى المشايخ فتكلموا فى شأن حادثة الإنجليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فإنهم أعداء الدين والملة ، ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشعبية والاتحاد ، وأن تمتنع العساكر من التعرض للناس بالإيذاء ، كما هو شأنهم ، وأن يساعد بعضهم بعضاً على دفع العدو » .

ثم أخذ هؤلاء فى التشاور فى تحصين المدينة وحفر الخنادق وقد نمت أحاديثهم عن خبرة جديدة اكتسبوها من نضالهم السابق ضد الفرنسيين إبان غزوهم مصر ، فمن قائل بأن الإنجليز

لا يأتون إلا من البر الغربى والنيل حاجز بين الفريقين ، وأن الفرنسيين كانوا أعلم بأمر الحرب ، وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل بباب الحديدوالمنيل،ومن قائل بضرورة الاعتناء بإصلاحه وغير ذلك من الآراء ، حتى اتفقوا على الرأى الأخير .

ولقد شاء قنصل فرنسا الذى فر من الإسكندرية وجاء القاهرة عن طريق رشيد أن يسهم فى هذه الترتيبات الفنية فى رسم خطط الدفاع عن القاهرة ، يقول الجبرتى :

« فى يوم الأربعاء (٢٩ محرم) ركب السيد عمر النقيب والقاضى والأعيان المتقدم ذكرهم ونزلوا إلى ناحية بولاق ؛ لترتيب أمر الخندق المذكور وفى صحبتهم قنصل الفرنساوية وهو الذى أشار عليهم بذلك ، وفى صحبتهم أيضا الجمع الكثير من الناس والأتباع والكل بالأسلحة » .

واشتركت طبقات الشعب فى حفر هـــذا الخندق وإقامة الاستحكامات يقول الجبرتى :

« وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأقبل الوكايل والخانات والتجار وأرباب الحرف الرونامجى ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة ، وعلى البعض أجرة خمسين وعشرين ، وكذلك أهل بولاق ونصارى

ديوان المكس والنصارى والأروام والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والغفقان والفئوس ، والحزم وآلات الحفر ، وشرعوا فى بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية » .

ولم يكتف أهل القاهرة بالتطوع للدفاع عنها ، بل هبوا لنجدة إخوانهم أهل رشيد ، عندما حاول الإنجليز معاودة الحملة عليهم ، وكانت زعامتها تنظم هذا العون فى القاهرة وخارج القاهرة وإبان ذلك الغزو الثانى لرشيد .

موقف الإنجليز والهجوم الثانى على رشيد :

بينما كان الاستعداد لمواجهة الإنجليز بين الشعب على أشده ، والفرحة تملأ قلوب الجميع لانتصارهم على الإنجليز ، كان هؤلاء فى الإسكندرية يشغلهم أمر الهزيمة وقد دفعتهم الرغبة يستثيرها قنصل بريطانيا — للانتقام إلى معاودة الغزو لرشيد ، بعد أن ذل كبرياءهم العسكرى . ولكنهم وجدوا هذه المرة قوة أكبر ، من شعب متساند مع جيشه وحكومته ومشاعر مهيأة للنضال حتى النصر .

كان بجانب العسكريين الإنجليز قنصل بريطانيا الدائب إذ ذاك على جر بلاده لاحتلال مصر .

لم يحتمل هذا القنصل الصبر على الموقف كما انتهى إليه ، فلم يهمد

ـ لاسيما بعد أن شاهد النتيجة السيئة ـ عن التحرض على غزو رشيد . وعندئذ تابع تحريضه لمعاودة الغزو مرة ثانية ، فذهب فى جماعة من أعيان الإسكندرية ليقابل فريزر ويطلب إليه تدارك رشيد لأن الطاعون قد اجتاحها ، فتقرر إيفاد حملة عهد بقيادتها للجنرال ستيوارت .

وكانت رشيدقد أنعشها النصر الأول وفتح أعينها على خبرات جديدة فى القتال ، وقد أصبحت بعد نصرها تستند إلى عمق كبير يسند ظهرها من مشاعر المصريين جميعاً ، ولم يكن مقدراً إلا أن تصمد أمام الغزاة بعد أن غدت مرموقة من المصريين فى بسالتها، وبعد أن ارتبطت بثقة كبرى بينها وبين سائر الشعب .

التقاء الطرفين :

وتحرك الجيش الإنجليزى من الإسكندرية لمعاودة الهجوم على رشيد مرة ثانية واحتلال هذه البلدة وكان عدد قواته أربعة آلاف مقاتل فى الثالث من أبريل سنة ١٨٠٧ والتقى الطرفان فى ساحة رشيد وأحكم القدر للطرفين خيوط مصيره ، وأرهف التاريخ أذنه ليتسمع إلى الأمر الفصل الذى شاءت هذه البلدة أن تلقيه فى سمعه تحديداً لمصير الحملة البريطانية ، وما جاءت

من أجله ، ليسجل بدوره على يدى رشيد نصراً جديداً يرسى أصول فجر جديد لمصر الحديثة .

أصبح جيش ستيوارت على مقربة من رشيد ، إذ ذاك أنفذ كتيبة منه احتلت الحماد التى تقع جنوب رشيد بين النيل وبين أدكو ، وقد شاء القائد بذلك ضرب الحصار حول رشيد والحيلولة دون وصول المدد إليها من الجنوب ، وصيانة مؤخرة الجيش الإنجليزى ليسهل احتلال رشيد .

واحتل الإنجليز آكام أبى مندور ، وركبوا عليها المدافع ليقصفوا منها رشيد بالقنابل ، ثم عسكر معظم الجيش الإنجليزى غربى رشيد وجنوبها ، وأخذ يحاصرها فى ٧ أبريل ، ويضربها بالمدافع .

كان الغزاة يظنون أن قصفها بالمدافع يلقى الرعب فى نفوس الحامية والأهالى ، ومن ثم يسلمون مضطرين ، ولكن عبثاً راحت ظنونهم أدراج الرياح . فرغم إنذاره لهم أكثر من مرة بأن يذعنوا ويسلموا مدينتهم صاغرين فقد رفضوا ذلك عن إباء وشمم ، وقد ازدادوا قوة معنوية وتماسكا ورغم تهدم الكثير من البيوت وقتل العدد الوافر من الأهالى . وصمدت رشيد أمام العدوان الغادر وتحمل الأهالى الحصار ، وما نجم عنه من خسائر فى صبر

عجيب فى انتظار عون القاهرة ومساندة إخوانهم من المصريين وهم يفتدونهم بأرواحهم فى المقدمة ؛ مما أثار دهشة القائد الإنجليزى ، فقد كتب الجنرال ستيورات إلى فريزر فى الإسكندرية يقول نقلا عن وثائق الحملة :

« ... تبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصايب التى تنزل بهم . إن قواتهم لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان ، و ٨٠٠ من الأرناؤود وألف من الأهالى المسلحين ، ولكنه نظراً لسعة خطوط دفاعهم ... وطبيعة مواقعهم أرى من الحكمة أن أتعجل باقتحام المدينة وإن نجاحنا معلق على نجدة المماليك ، فإذا جاءوا إلينا أمكننا أن نرسل إلى البر الشرقى من النيل قوة تشترك معنا فى القتال ، أما الآن ... فيستحيل علينا ذلك ، لأن العدو متفوق علينا فى قوة الفرسان ... وليس لدينا مثل هذه القوة التى لها عمل كبير فى الجهات المنبسطة كالدلتا ، وفى انتظار تلك النجدة يتبين لنا أهمية موقعنا فى الحماد ، فإننا نتوقع أن يهاجمنا الأعداء فيها ، وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها فى يدنا » .

رشيد تطلب النجدة :

وبين صمود رشيد فى الدفاع عن ذمارها وافتداء المصريين ،

بنضالها التاريخى ضد الغزاة ، أرسلت تطلب النجدة من القاهرة بعد أن اضطرت فشعرت بوطأة الموقف .

أرسل السيد نقيب أشراف رشيد الرسائل للسيد عمر مكرم يستنجد به ويطلب إمداد المدينة بالرجال ، فقرأ السيد عمر مكرم الرسالة الأولى على الناس ، وحضهم على التطوع لنجدة رشيد فاستجابوا إليه وتطوعوا وحملوا السلاح وأزمعوا على السفر لنجدة إخوانهم . وبالرغم من أن (كتخدا بك) لم يأذن لهم بالسفر حتى يعود محمد على من الصعيد ، فإن كثيراً منهم لم يعبأ بهذا المنع وارتحلوا لنجدة أهل رشيد والوقوف بجانبهم فى صد الجيش الإنجليزى .

وتطوع كثير من أهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد ، وأقبلوا عليها يتدفقون وقد مثل ذلك لوناً جديداً من الشعور بالجماعة ، غير أن هذا لم يكن ليسعف الموقف ، إذ كان لا بد من مدد من قوات الجيش المصرى ، ليقف بجانبهم فى المعركة .

عودة محمد على من الصعيد :

وعاد محمد على من الصعيد ، فى غضون هذه الأزمة الدقيقة ، ورشيد تتابع طلب النجدة ، فبلغ القاهرة ليلة ١٢ أبريل

سنة ١٨٠٧ وخرج عمر مكرم والمشايخ والمحروقى لملاقاته ، وركب الجميع وذهبوا للسلام عليه ، ودار بينهم الحديث فى أمر الإنجليز ، فأظهر اهتمامه الكبير ، ولكنه سخط على أهل الإسكندرية سيما أمين أغا إذ مكنوا الإنجليز من الثغر ، ولم يقبل لهم عذراً ، ولما قالوا له : « إننا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية والعسكر » كان جواب محمد على : « أن ليس على رعية البلاد خروج ، وإنما عليهم فقط المساعدة بالمال ، ثم انفض المجلس . وسار بعد ذلك تدبير الموقف فى نشاط جدى » .

محمد على يستعد :

اطمأن محمد على كثيراً ، وسر لهزيمة الإنجليز فى رشيد ، ولقى الحالة أقل خطورة مما كان يتوقع ، ولكن لم تملأ قلبه الطمأنينة تماماً فقد رأى أن الإنجليز قد يستأنفون القتال ، فبادر إلى تجريد جيش لمحاربتهم ، وجد فى استكمال الاستحكامات التى بدأها الشعب من قبل ، وواصل العمل فى حفر الخنادق من باب الحديد وبولاق ، لإقامة خط الدفاع عن القاهرة ، من الشمال ، وشق أخاديد أمام الفنادق تتصل بالنيل لتمتلىء بالمياه وتعرقل تقدم الجيش الإنجليزى . ثم أغرق عشرة من المراكب بين جزيرة بولاق

والشاطئ ، لمنع مرور السفن الإنجليزية فى النقل إذا ماجاءت من رشيد ، ثم نصب المدافع فى شبرا وامبابه وجزيرة بولاق ، وقد اشترك معه العلماء والشعب فى العمل بحماسة ، وأخذ يدبر المال اللازم لنفقات الجيش ، يعاونه فى ذلك علماء البلد والسيد عمر مكرم ، فجمعوا تسعمائة كيس من سكان العاصمة من أجل نفقات الزحف ، حتى تم إعداد الحملة ، فكانت مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل من المشاة ، وخمسمائة وألف من الفرسان ، ثم أمرها بالسير قاصدة رشيد بقيادة طبوز اغلى (كتخذا بك) نائب محمد على .

كان أهالى رشيد ينتظرون فى لهفة أن تنجدهم القاهرة بالمدد والمساعدة ، وهم فى صمودهم أمام الإنجليز ، وكان الإنجليز من ناحيتهم ينتظرون أن ينجدهم المماليك وهم يهجمون على الأهالى بغير جدوى ؛ ليتمكنوا من الاستيلاء على رشيد ، ولكن هؤلاء أخذوا يسوفون ويماطلون فى الوفاء بعهدهم ويرقبون تطور الحوادث فى حرص ، وقد وقفوا جانبا عن حلفائهم لما رأوا من حرج مراكزهم ، وقد بدأ الموقف يتحول إلى جانب رشيد بفضل استجابة القاهرة لها بالعون القوى . استمر الضرب والحصار نحو اثنى عشر يوما ، كان الأهالى يناوشون

مواقع الإنجليز فى الحماد ، فأنفذ إليها الجنرال ستيوارت مددا من الجنود ، وركب المصريون مدفعين على الشاطىء الشرقى ، وأخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الإنجليزى ، بالبر الغربى ، عندئذ اجتاز الميجر ماكدونالد النيل عند مسجد أبى مندور فى ١٦ أبريل ومعه قوة من الجنود عددها ٢٥٠ جنديا واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ولكن سرعان ما ارتدت القوة إلى أعقابها عندما تلقى المصريون مددا واستمر الضرب والحصار إلى أن جاء المدد ، الذى أرسله محمد على ، عندئذ أخذ الموقف الحربى يتغير من أساسه . ولقد كانت هذه الإمدادات المصرية مؤلفة من فرقتين يقود إحداهما طبوز اغلى وقد اتخذ خط سيره الساحل الشرقى للنيل ، أما الثانية فكانت تحت قيادة حسن باشا وكان يسلك طريقه إلى رشيد بحذاء الشاطئ الغربى للنيل وقد ظلت كلتاهما تسيران بحذاء واحد على ضفتى النيل حتى بلغتا قبالة النقطة التى كان يعسكر فيها الجيش الإنجليزى ، واتخذها نقطة أمامية وهى قرية الحماد ، فعسكرت فرقة حسن باشا تجاهها ، كما اتخذت الفرقة الأولى قبالتها قرية برنبال معسكرا لها ، وكانت كل قرية على مرأى البصر من الثانية .

بداية المعركة :

دار محور القتال حول موقع قرية أبى حماد ، لأن موقعها الاستراتيجى كان على جانب كبير من الأهمية ، فمن يمتلكها كان يستطيع التحكم فى منطقة رشيد كلها ، وقد تخير الإنجليز احتلالها والدفاع عنها بشدة لحماية ظهر القوات المحاصرة لرشيد من احتمال هجوم القوات المصرية من الجنوب .

وكانت أهميتها الحربية ترجع إلى وقوعها فى برزخ بين النيل وبحيرة أدكو ، وكان فى شمالها ترعة ، كانت فى ذلك الحين جافة تصل بين النيل إلى قرب البحيرة ، وكان التحكم فيها من شأنه أن يقطع على جيش مصر ولوج هذا الباب الوحيد السهل ، فيحول تمكنه من القضاء على الجيش الإنجليزى المحاصر لرشيد ونجدة أهلها ، غير أن قوات مصر إذ ذاك كانت من القوة لدرجة أن كان فى مقدورها فتح ثغرة فى هذا البرزخ بين القوات البريطانية والنفاذ منها إلى رشيد ، بل والالتفاف حول القوات الإنجليزية نفسها ثم تشتيتها .

وما أن رابطت قوات مصر فى مواقعها ، حتى تقدمت منها طليعة من الفرسان البواسل فى صبيحة العشرين من شهر أبريل

نحو مواقع الجيش الإنجليزى فى الحماد ، وهناك التقت بكتيبة منهم بين المزارع ، فلم يسع هؤلاء إلا الارتداد إلى الوراء فلما لم يحكموا انسحابهم ، انقض عليهم الفرسان المصريون وأحاطوا بهم فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين ، وقضوا عليها كقوة محاربة ، وعلم ستيوارت بهذا التلاحم الذى خسر فيه جنوده وأنذر بتفكك أوصال جيشه والقضاء على قوة الحماد كلها ، أرسل القائد ماكلود ومعه قوة من الجنود والمدافع وعهد إليه بقيادة القوة المرابطة ، ثم رتب الكلونيل مواقع جنوده وكان عددهم ثمانمائه ، ترتكز ميسرتهم إلى النيل بقيادة الماجور وجلساند ، أما ميمنته فكانت بقيادة الكابتن تارلتون ، وكانت قرب بحيرة أدكو ، أما قلب هذه القوة ، فكان يرتكز إلى قرية الحماد نفسها بقيادة الماجور مور .

ثم انقضى يوم ٢٠ أبريل دون أن تتعرض مواقع الإنجليز للخطر ، وسرى الأطمئنان إلى قلب ماكلود على سلامة مركزه وتحصيناته .

وقام الجنرال ستيوارت فى ٢١ أبريل يطمئن إلى سلامة الخطة ومعدات قواته ، فأخذ يفتش خط الدفاع فى هذه القرية ، فلاحظ بعض العيوب فيها ، إذ وجد أن القوة فى خط الدفاع ، لاتحتمل فى بعض نقاطها أى ضغط من قـــوات جيش مصر

إذا ماحدث وتكاثر عددها ؛ إذ كان من السهل أن تنفذ القوات المصرية عند تكاثرها من إحدى ثغرات هذا الخط إلى قوات رشيد ، وتمزق شمل هذا الخط الدفاعى ؛ لذلك عهد إلى الكلونيل ما كلود أن يبذل قصارى جهده للدفاع عن موقعه ، ثم أمره بالارتداد إلى شاطئ البحيرة فى حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين . فإذا لم يستطع ذلك ، فعليه أن يتراجع مرتدا إلى الجيش الإنجليزى المحاضر لرشيد إذ ذاك .

ونظرا لأن ستيوارت كان قد أدرك تكاثر قوات مصر بشكل أصبحت به تفوق عدد الجيش الإنجليزى ، عدة وعتادا فقد ارتأى أن ينتظر حتى اليوم التالى ، ثم اعتزم أنه إذا لم تصله النجدة التى كان يترقبها الإنجليز من المماليك برا بعهودهم ، واتفاقهم السابق أن ينسحب من موقع الحماد ، ثم يرفع الحصار عن رشيد ، ليتراجع منها إلى مركز القيادة العامة بالإسكندرية .

النصر فى المعركة الفاصلة :

وجاء اليوم التالى (٢١ أبريل) وكان يوما أغر على قوات مصر وعصيبا على القوات الإنجليزية ، فلم تأت إمدادات المماليك المتوقعة ، وتطلع الكلونيل ما كلود إلى الأفق ، وامتد بصره ،

فرأى فى الصباح معالم الهزيمة لجيشه ، رأى القوات المصرية وقد تكاثر عددها وامتلأ السهل برجالها ، وقد تهيأت إذ ذاك للانقضاض على جيشه لتلقى عليه درسا قاسيا ، وكأنما كان القدر قد أعد الهزيمة ليفرضها على بريطانيا المعتدية ، وكانت خيوطها تنحدر إلى هذا اليوم العصيب ، الذى مثل اليوم الفصل للحملة الإنجليزية كلها .

أسرع القائد يتدبر الموقف ، فقد حدث إذ ذاك أن انتقل طبوزاغلى قائد جيش مصر من الشاطىء الشرقى إلى الشاطىء الغربى للنيل منضما إلى زميله ، والتجمع للهجوم على الحماد .

كان طبوزاغلى منذ أن رابط فى برنبال يتردد فى اتخاذ أى طريق يسلكه ، هل يذهب رأسا لنجدة رشيد ، ليرفع الحصار عنها ، أم يهاجم أولا مواقع الجيش الإنجليزى فى الحماد ، فلما بلغه النصر الذى ناله الفرسان فى الاصطدام الأول ، تشجع واعتزم اتباع الخطة الأخيرة فعبر النيل ليلا بجنوده ، وانضم إلى فرقة حسن باشا ، وتهيأ لمهاجمة الحماد فى صبيحه ٢١ أبريل .

فلما شاهدهم القائد « ماكلود » فى ذلك الصباح فى تكاثر عددهم أسرع إلى الجنرال ستيوارت ينبئه بالخبر ، ويطلب إليه أن يقره على الانسحاب إلى رشيد ، فلما علم ستيوارت ، لم يلبث

حتى أقره على خطته ، ثم أمده بفصيلة من الجنود غير أن الرسول لم يصل إلى الحماد ، كذلك لم يأته هذا المدد ، لأن فرسان الجيش المصرى كانوا قد انسابوا فى السهل وقطعوا المواصلات بين الحماد ورشيد ، وبذلك أصبحت القوة الإنجليزية فى حالة انعزال تام .

واعتزم « ماكلود » الانسحاب من خط دفاعه يأساً وقنوطاً مؤثراً العافية على النضال الحربى ، ولكنه لم يحكم خطة انسحابه ، إذ تفرقت قواته وانتشرت ، إذ ذاك باغتتها فرسان الجيش المصرى وانقضت عليها واحدة إثر أخرى ومزقتها شر ممزق فى الوقت الذى احتل فيه المشاة المصريون قرية الحماد .

وحمى وطيس المعركة ، وواجهت القوات المصرية خصمها بأشد هجوم ، تضرب فى الشمال واليمين ، وتنفح بالأمل الباسم المتفتح عن فجر جديد ، كتلة متراصة موحدة الهدف فى مواجهة جيش الإمبراطورية ، الذى هزمت به الفرنسيين والأتراك من قبل لاتمزقها الخيانة ، ولا تعبث بمقوماتها الدسائس ، ولا تضللها الغايات الضالة ، ومن ورائها شعب متماسك يتحسس نفسه فلا يجد فيها إلا عزما وقوة وصلابة نحو الجهاد فى سبيل صيانة بلده ومقومات حياته ودينه وبتطهير بلاده من الغزاة الإنجليز .

بدأت المعركة فى السابعة صباحاً ، واستمرت ثلاث ساعات

سوياً ، كانت القوات المصرية فيها تحكم ضرباتها على العدو وخططها فى السير فى المعركة .

تعقب الفرسان المصريون القوات الإنجليزية الثلاث ، القلب والميمنة والميسرة ، فأحاطوا بقوة القلب ، وكان معها الكولونيل ماكلود ، فانهالوا عليها بالرصاص من كل صوب حتى قتلت معظم رجالها ، وقتل من بينهم القائد ماكلود نفسه .

وأحاطوا بالميمنة فمزقوا جنودها شر ممزق ومعهم قائدهم الكابتن تارلتون ، ولم ينج من القتل سوى خمسين أسرتهم هذه القوات ، أما ميسرة الجيش الإنجليزى فقد حاولت الدفاع عن نفسها والمقاومة، ولكن راحت مساعيها أدراج الرياح أمام اندفاع قوة الفرسان ، وخفة حركتهم إذ أحاطوا بها من كل جانب وإذ ذاك لم ير قائدها الميجور وجلساند بدا من التسليم، فسلم لهم عن يد وهو صاغر ، ومعه البقية الباقية من جنوده وبهذا انتهت المعركة بانتصار القوات المصرية انتصاراً ساحقاً وهزيمة الجيش الإنجليزى فى الحماد ، ولم ينج منه أحد ، فمن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر ، حتى بلغت خسائر بريطانيا فى هذه المعركة الفاصلة ، نحو أربعة مائة وستة عشر قتيلا ، وأربعة مائة أسير .

فك الحصار عن رشيد :

وعلم الجنرال « ستيوارت » وقلبه ينفطر بالأسى والأسف ، بنتيجة المعركة فأدرك عظم النكبة التي حلت بقواته في الحماد ، وكان إذ ذاك مرابطاً أثناءها بقواته جنوب رشيد ، فأسرع إلى رفع الحصار عن رشيد ، ثم بادر إلى الانسحاب سراً وفي كتمان ، حتى لا يباغته جيش مصر وينقض عليه ، فأتلف مدافعه ومعداته التي لم يستطع حملها متراجعاً إلى الاسكندرية عن طريق أبو قير يلحقه عار الهزيمة أينما حل حتى غدا جيشه مستضعفاً أمام سكان المنطقة التي جرت في ساحتها المعركة فبالرغم من كتمانه تدابير الانسحاب أحس بها هؤلاء ، فتعقبه أهالي رشيد والبلاد المجاورة في انسحابه حتى وصل إلى بحيرة أدكو ، وهناك جرت مناوشات على شاطىء البحيرة بين الطرفين ، انتهت بارتداد هؤلاء ، فواصل الإنجليز انسحابهم حتى بلغوا أبو قير ، ومن هناك ركبوا البحر إلى الإسكندرية .

أنباء النصر في القاهرة :

وأخذت أنباء النصر تنتقل تباعاً إلى القاهرة ، فيتسابق السعاة

إلى نقلها ، لينالوا مقابل ذلك العطاء الوفير من محمد على وشرف السبق فى حملها إلى القاهريين .

يقول الجبرتى : « فى يوم الخميس (١٤ صفر) حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الإنجليز وهزيمتهم وذلك أنه قد اجتمع الحجم الكبير من أهالى البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعين والعساكر وأهل دمنهور وصادف وصول « كتخدا بك » ، وإسماعيل كاشف الطوبجى إلى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الإنجليز طائفة وقتلوا منهم عدة رؤوس فخلع الباشا « محمد على » على الساعيين جوختين . وفى أثر ذلك وصل أيضاً شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر وبالغاً فى الإخبار وأن الإنجليز ، انجلوا عن متاريس رشيد ، إلى مندور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم إلى أن توسطوا البرية ، وغنموا ضماناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين » .

وتمضى قصة النصر فتنقل إلينا صورة عما يحدث من الإعداد لنقل الأسرى إلى القاهرة ، وتزداد الأنباء تواردا فيزداد محمد على سروراً ، كما أحيط عمر مكرم علماً بالموقف وكان سروره لذلك

بالغاً ، وقد أطلقت المدافع صبح ذلك اليوم (٢٣ أبريل) من القلعة والأزبكية وبولاق والجيزة ، احتفالا بهذه البشرى .

وكان طبيعياً بعد ذلك أن يفد إلى القاهرة جموع الأسرى زرافات ووحدانا ، كما حدث أثر النصر الأول فى رشيد .

طليعة أفواج الأسرى :

وتطلع الناس لمقدم الأسرى وأخذت طلائع هؤلاء تترى ، تباعا إلى القاهرة فى اليوم التالى (٢٤ أبريل) فحضر أولا ١٩ إنجليزيا من جنود الحملة ، وعدة من الرءوس فمروا بهم وسط (الشارع الأعظم وأما الرءوس فمروا بها عن طريق باب الشعرية ، وعدتها نيف وثلاثون رأسا موضوعة على نبابيت) كرواية الجبرتى ، وقد وضعوها فى وسط بركة الأزبكية مع الرءوس الأول (صفين على يمين السالك من باب الهواء إلى وسط البركة وشمالها) .

وفى اليوم التالى (٢٥ أبريل) وصل تسعة أشخاص من أسرى الإنجليز ومعهم أحد ضباطهم ، ثم توافد فى اليوم الذى تلاه (نيف وستون ومنهم رأس واحدة مقطوعة ، فمروا بهم على طريق باب النصر من وسط المدينة وهرع الناس للفرجة عليهم وبعد

العصر بثلاثة وعشرين وثمانية رءوس وبعد العصر بثلاثة وعشرين رأسا وأربعة وأربعين أسيرا من ناحية باب الشعرية وطلعوا بالجميع إلى القلعة) .

الركب الكبير :

ثم جاء ركب الأسرى الأكبر فى ٢٩ أبريل الذى ازدحمت شوارع القاهرة الرئيسية من أجل رؤياه ، وكان مظهرا اختلطت به مشاعر النظارة بين معانى الفرحة وعواطف الإشفاق بدافع النزعة الإنسانية .

فعقب المعركة جمع كتخدا بك جمهور الأسرى،ومعهم جرحاهم ورءوس قتلاهم ، وأنزلهم فى مراكب فى النيل لتبلغهم تلك للقاهرة ، ليشهدهم سكانها ومن ثم يودعون فى سجون القلعة .

وركب الأسرى وجرحاهم ومعهم رءوس قتلاهم تحت حراسة الجنود المصريين ، وساقت الرياح الشمالية السفن إلى القاهرة تشق عباب النهر فى عزة وعلى ظهرها حطام معركة تسجل جزاء الغزاة أمام وحدة الشعب المتماسكة ، وتمعن السفن فى المسير فى صراع مع التيار وتستحث الخطى فى لهفة للقاء القاهرة، فلا تواتيها ريح الشمال بقدر ما ينفس عن حرارة لهفة الجذلان بنصره ، المتشوق للقاء بنى عشيرته يشهدهم مبلغ قوة جيشهم ، ومدى خذلان أعدائهم .

وبينما كان الجنود المصريون مغمورين بفرحة النصر كان الأسرى تتنازعهم الأوهام والهواجس وتتزاحم فى عقولهم الأفكار خشية سوء المصير ، فينفسون عنها همسا ، ويأخذ منهم الخوف كل مأخذ من ذلك ، يحاول الفرد ، التسرى عن ذلك بحديث أو بمنظر ، ولكنه لا يلبث أن يرتد فى حسرة بين الماضى والحاضر .

وتمخر السفن عباب النهر وتطول الليالى أمام الجنود ، فيقطعونها بين وحشة الأسر وذلة الهزيمة ، ورهبة المنظر المنبعث من رءوس زملائهم وتقترب السفن من القاهرة ، فيزداد الجنود المصريون فرحا وغبطة ، بينما تزداد قلوب الأسرى وجلا من أن تصبح ، هواجسهم حقيقة واقعة ، فيذوقوا سوء المصير كزملائهم الذين قطعت رءوسهم .

وتنبلج أضواء الفجر وتكشف خيوط الفجر عن معالم تلال المقطم فتتكشف تحتها قباب القاهرة ومنائرها ،

ويستيقظ الأسرى ليشهدوا القاهرة ، وعليها أضواء ، صبح جديد فيرونها لأول مرة ، فتصبح القاهرة لتشهد معالم النصر فى موكب الأسرى يطوفون شوارعها . ومن ورائها شعب كان يتهيأ إذ ذاك لبناء أصول دولة حديثة .

وتلقى السفن بمراسيها فى بولاق ، فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٠٧ ويخرج أهالى القاهرة ، بين أخبار الأمس وموكب اليوم فى حلم جديد ، فيتوجه الجميع إلى بولاق ويتوزعون إلى الأزبكية وكأنهم يتلاقون على ميعاد من القدر لمشاهدة الموكب ، ويتكاثر عددهم كلما انتشرت الأخبار عن مجىء الأسرى فيمتلىء ساحل بولاق والطرق المؤدية إلى القاعة بالنظارة .

وتنزل أفواج الأسرى الإنجليز ساحة القاهرة ، أسرى حرب لا فاتحين ، كما كانوا يحلمون ، وتسير جموعهم وقد نكست رءوسهم وأبت ألا ترتفع إلا فى ذلة ، وحولهم رءوس قتلاهم مرفوعة على رءوس الرماح والنبابيت وعليهم سمات الإعياء والجوع والتعب لا يكادون يثيرون الشفقة بين أهل القاهرة حتى يرتد منظرهم العدوانى فيثير فيهم النقمة جزاء ما فعلوا ، وقد سار فى مقدمتهم من قواد الجيش الإنجليزى الماجور مور ، والماجور ويجلسند وكان يوما مشهودا .

وتابع الركب المسير حتى الأزبكية حيث صفت رءوس الكثيرين من القتلى الإنجليز ، السابقين فى صفين على رءوس النبابيت الطويلة وسط الأزبكية ، وكانت نظرة واحدة إلى هؤلاء

من أسرى الركب كافية لأن تضاعف فيهم الرعب وتزيد فى نفوس معظمهم الإعياء .

وأخذ حى الأزبكية يموج بالزحام والحركة ، وكأنما خرج الناس جميعا ليروا موكب الأسرى فى يوم النصر ، وكانت أسطح المنازل تزدحم بالنساء وهن يمـــددن أبصارهن ليحطن بجلية الموقف .

وحدث أن تعمد الماجور ويجلسند وضباطه رفع قامتهم إلى أعلى وهم يسيرون بين الجمهور ، ولـكنهم ما كادوا يفعلون ذلك فيلقون بأبصارهم نحو الأزبـكية حتى اصطدمت تلك بأعين رءوس أقرانهم محموله على النبابيت وسط الأزبـكية فارتاعت نفوسهم وامتلأت رعبا وأسى ،إذ ذاك ارتدوا إلى نفوسهم منكسى الرءوس فى ألم وحسرة وقد غدت بعد ذلك خطواتهم أثقل فى المسير ، تضاعف متاعبهم وتمـكن فيهم الـكلال والأسى .

ثم عرج الركب إلى الأزبكية فألقى برءوس قتلى الإنجليز إلى ما كان بها من قبل ، ثم تابع المسير حتى بلغ القلعة فاستودع سجونها جموع الأسرى ، تحت الحراسة المشددة وهناك وبين أحضان المقطم حيث كانت تربض القلعة ، استسلم هؤلاء لنوم عميق ، ولـكنه كان نوم الـكليل المتعب لا القرير العين ، فـكم كان

يؤرقهم شعور القلق بسوء المصير، ويثير فيهم الوحشة ظلام السجون بجدرانها السميكة الجاثمة على سفح المقطم. يحتويهم الليل فيطول، ويدهم الصبح ظلام الليل فلا يطلع النهار عن أمل يبعث فى قلوبهم الطمأنينة. وقد ظلوا على ذلك مدة والحوادث تجرى حولهم سراعا لترتبط مصيرهم بمصير الحملة الإنجليزية كلها.

وكما أعد محمد على للأسرى السجون. أعد للجرحى أمكنتهم الخاصة، واتجه إليهم يمكنهم من الشفاء بما هيأه لهم من وسائل العلاج ومن خصصه للإشراف عليهم من أجل ذلك من الأطباء تحت إشراف قنصل فرنسا. وقد خص كبار الجرحى بمزيد من العناية إذ أفرد لهم أمكنة تليق بهم. يقول الجبرتى وصفاً للعناية بالجرحى: «وفرش لهم فرشات ورتب لهم تراتيب وصرف عليهم نفقات ولوازم واستمر يتعاهدهم فى غالب الأيام... والجرائحية يترددون إليهم فى كل يوم لمداواتهم كما هى عادة الافرنج مع بعضهم به إذا وقع فى أيديهم جرحى به المحاربين لهم».

— ٦ —

رشيد ومحمد على

وبينما كان هذا يحدث فى القاهرة كانت رشيد الباسلة، صاحبة الفضل الأكبر فى الفصل فى مصير الحملة البريطانية وتخليص محمد على مما كان مقدراً له، لو نجحت، من شرور تستأصل جذور حكومته وتعصف بآماله عصفاً، كانت رشيد الجريحة إذ ذاك وهى تدخل التاريخ. تواجه محنة كبرى، كانت نذير سوء للوعى الطالع فى مشرق مصر الحديثة، وذلك فى علاقتها بعد معركة الحماد، بمحمد على وحكومته ثم جنوده البواسل !!..

وقفت تدافع وحدها مدة — وهى تبلور فى نضالها وعى شعب جديد حتى أرست وحدها، وهى تتلقى عن سائر الشعب سهاما تتلوها سهام، أصول نصر مؤزر، حتى إذا ما اعتراها الكلال، دون أن تفقد روح النضال، أسعفتها حكومة محمد على بالعون الحربى وإذ ذاك تجلى فى ساحتها الروح القومى المشرق فى إطار الفكرة الإسلامية، وتحقق بهذا التساند بين الشعب والحكومة نصر مؤزر كان لمحمد على من أضغاث الأحلام.

هل أحست حكومته بعد هذا بواجب الثناء والتقدير لها برشيد ؟؟؟ أو بحقها عليها فى الوجود الكريم ، حقاً يكرم به شعبا رفعة لدست الحكم وولاه حتى صان حكمه من الدسائس وأطاعه من يد الغزو الأجنبي .

لم يكن محمد على فى بنائه الفكرى ينزع بطبيعته نحو شيء كهذا . . فلم يكن من رأيه الاعتراف بحقوق الشعوب ؛ لأنه كان يأبى الانحراف عن طبيعته الأوتوقراطية فكان طبيعياً ألا يشجع هذا الروح المشرق كيلا ينضج فيناصبه العداء .

لذلك أهملت شئون رشيد وهى بعد لم تبرأ من جروحها . وأخذ محمد على ينظر إليها من خلال نظرته إلى اتجاه لابد من القضاء عليه من خلال مبادئه . فاعتدى عليها الجنود الذين شاركوها فى الدفاع عن مصر . بعد معركة الحماد ، فاستباحوا أهلها ونساءها وأموالها زاعمين كما يقول الجبرتى أنها أصبحت « دار حرب بنزول الإنكليز عنها وتملكها » وقد كان هؤلاء فئة لا وطن لها إلا حيثما وجد النفع وتيسر السلب والنهب .

ولما كانت رشيد صورة مصغرة من بناء مصر الفكرى إذ ذاك تكره الطغيان وتجد بأسلوب عصرها ساعية وراء إقرار العدالة والأمن ، لم تطق صبراً على عبث أخلاط جنود محمد على من الترك

والأرناؤود الألبان ، فكانت تكافح الطغيان ولكن بأسلوب جديد ينبعث بوحى الولاء لمحمد على وحكومته وتصقلة الأخوة الإسلامية وترسم خيوط ما تراه من شريعة الدين .

أبدت زعامة البلد الباسل استياءها إزاء الموقف فأرسل هؤلاء إلى القاهرة بالشكوى والحماية من هذا العبث — يقول الجبرتى : « وكتب عليه المعنون بالمنع وعدم الجواز . . . وعلى أنه لم يرجع طالب الفتوى بل أهملت عند المفتى وتركها المستفتى » .

وعادت الجنود إلى العدوان : أحاطوا بالبلدة وضربوا على أهلها الضرائب وطالبوها بالأموال « وأخذوا ما وجدوه فيها من الأرز « العليق » .

عندئذ خرج زعيمها السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخدا بك وناقشهما بأسلوب ملؤه التقريع والتشهير فقال :

« كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العسكر ومساعدتهم . . . وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال . . . ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل . . ! فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ولا نأخذ معنا شيئاً ونترك لكم البلدة . . . » .

وكان موقف الحكومة فاتراً . ألواناً من الملاطفة فى الحديث !!
ثم « وأظهروا له الاهتمام بالمناداة والمنع وكتب المذكور أيضاً

مكاتبات بمعنى ذلك وأرسلها إلى الباشا والسيد عمر مكرم فكتبوا فرمانا وأرسلوه إليهم بالكف والمنع ... ، ولكن لم ينفذ شيء وأهمل شأن البلدة فآثر أهلها الرحيل عنها وهم أصحاب الدار ، وكانت الحكومة تنظر إلى الجنود كمن أدى واجباً بعون ما أداه غيرهم فى الدفاع عن البلد بشكل يوجب التسامح معهم .

وأهملت رشيد واستبيحت ولكنها كمنت فى ذاكرة الشعب، وغدا التاريخ ينقل عنها كما ينقل عن غيرها مما شابهها فى بطولتها ضروب لأمثلة عن العزم والنضال الحر لصد العدوان وكراهية الظلم .

ولقد أفصح موقف محمد على بهذا عما تنذر به الأيام حيال هذا الشروق الصاعد فى أرض مصر وقد مثل ذلك منه طليعة نزعة تنحو إلى استئصاله لنقل قياد الأمور إلى يديه منفرداً بملك البلاد.

— ٧ —

الموقف بين محمد على وفريزر

بينما كانت القاهرة تموج بنشوة النصر تشاركها مصر كلها ، ورشيد تواجه محنة بعد بطولتها وأسرى الإنجليز بين جدران سجون القلعة ينظرون ما يراه القدر فى مصيرهم ، كان التاريخ يسجل فى ثبته أفول نجم الحملة الغادرة وفساد خططها الحربية والسياسية على السواء ، وضياع أطماع «مست» فى سحب نفوذ بلاده على مصر .

انتقل الفريقان ، بعد معركة الحماد إلى محاولة مجانبة كل أخطار الآخر . ومحاولة الاستعداد إلى المماليك فى ذلك ، والمماليك بين الطرفين يقفون منها موقف المنتظر لما تسفر به الأحداث فيعلقون ولاءهم لا قواهما قدرة على تحقيق مآربهم فى البلاد .

فريزر :

أكدت الحادثتان اللتان جاءتا ثمرة أطماع « مست » فى دفع بلاده لغزو مصر وانتهيتا بانتصار مصر على انجلترا فى رشيد ، وأبانتا لفريزر ، كيف دفع دفعاً للخرج عن الغرض الذى

جاءت الحملة من أجله من الاقتصار على احتلال الإسكندرية ولكن بعدن تكبد الثمن فى سبيل ذلك غالياً . وقد أصبحت الحملة أتفه من أن تتابع بريطانيا الإنفاق عليها من أجل هدفها المؤقت والذى كان تطور الموقف الدولى كفيلا بحله ،لاسيما بعد أن فقدت انتصارها فى مصر بهزيمتها وانشغلت بما هو أهم فى علاقتها إذ ذاك بنابليون وامتنع فريزر بالإسكندرية بعد الهزيمة انتظارا لأوامر بلاده وفى نفسه بقية من أمل لطلب النجدة من المماليك فبعث إليهم برسالة يذكرهم بوعودهم ، ويحرضهم على نجدته؛ ليتمكن من مواصلة القتال ولكن أبى للمماليك الاستماع إلى ندائه بعد أن فقد معظم جيشه ولحقت به الهزيمة ولم يعد يرجى من ورائه خير ، بعد أن رجحت كفة محمد على عليه فى داخل البلاد ؛ لهذا صموا آذانهم عن الاستماع إلى ندائه .

ووضح للجنرال فيرزر الهدف الذى جاء البكوات المماليك من أقصى الأرض سعياً وراءه ، لقد قال: إنهم وفدوا إليه ليمكنهم من امتلاك مدينة الإسكندرية، ولهذا ولوا وجوههم عنه عندما وجدوه أعجز من أن يحقق لهم ذلك الهدف .

وظل القائد الإنجليزى فريزر ممتنعاً بالإسكندرية والحوادث تجرى سراعاً حوله فى الداخل والخارج ، فتحدد ما بقى من أيام فى عمر الحملة فى مصر .

ولكى يأمن على نفسه شر أى هجوم بعد أن أصبح مستضعفاً ، قطع سد أبو قير لتطغى مياه بحيرة أبو قير على مريوط ، وتحيط المياه بالإسكندرية من جميع الجهات ، ثم اتجه إلى محمد على فى علو شأنه عليه ، وأخذ يحدد علاقته به انتظاراً لما ستأتى به الأيام حول مصير الحملة فيما تقرره بلاده بشأنها .

محمد على :

وكان محمد على إذ ذاك قد شعر بكثير من الاطمئنان بزوال خطر الحملة على البلاد ، ولكنه لم يهمد فى السعى للاستعداد لمواجهة احتمالات الظروف . والعمل على القيام بواجباته الحربية كحاكم للبلاد من قبل الدولة العثمانية . إزاء هذه الحملة وتطهير البلاد منها .

وعلى غير علم بمجريات الأمور فى المجال الدولى ، التى كانت تعمل إذ ذاك لتقرير مصير الحملة ، أخذ محمد على يستعد ، فمضى يطالب المماليك بالوفاء بالتزامات الصلح الذى عقد بينهما كما طالبهم الإنجليز .

وجد هؤلاء أنفسهم فى مفترق الطرق تتجاذبهم أيدى ذات غايات متضاربة، فلم ينسوا هم بالتالى السهر على مآربهم الخاصة .

تحالفوا من قبل مع فريزر ولكنهم كانوا منقسمين . يكابدون في كيانهم عوامل اليأس والانحلال ، ومد إليهم محمد على يد المصالحة ، فرغم تجاوبهم الروحى مع الإنجليز رضوا بالواقع بفضل تأثير محمد على وقنصل فرنسا فى مصر خشية تقريع إخوانهم المسلمين بالانضمام إلى من اعتبروهم كفاراً ولكنهم لم يقطعوا رجاءهم فى الإنجليز بقدر ما كانوا يشكون فى نيات محمد على ويقطعون الرجاء فيه . ولكن كان لابد من مسايرة الموقف فى الداخل . ثم هزم الإنجليز فى رشيد ولكنهم رغم هذا بقوا على رجائهم منهم طالما كانوا فى البلاد. ولكن لم يكن معنى هذا الاستجابة لفريزر بالوقوف معه فى محنته ضد محمد على، وذلك الذى علت كفته عليهم . ومد محمد على بعد هزيمة انجلترا فى رشيد يده إليهم للوفاء بالتزامات الصلح ، فلم يتحمسوا فى ذلك ، فقد دفعتهم عدم الثقة فى محمد على إلى الظن فى احتمال الخير على يد الإنجليز وهم دولة كبرى . ولكنهم لم يجدوا بأساً من السير وفق التزامات الصلح مع محمد على فى بطء حتى لايكشفوا عن أهدافهم المضمرة ويتعرضوا للتنكيل إذا جلا الإنجليز عن البلاد وتملك هذا زمام الموقف نفسه فإن لم يأت منه خير بهذا، فلا أقل من أن يتجنبوا به شراً . كانوا غير مخلصين للطرفين ولكنهم كانوا يعقدون الرجاء

على عون الإنجليز أكثر من محمد على . وكانوا ينزعون نحو معاملة كلا الطرفين بقدر ومقدار ولا يتورعون إذا ما وضح الموقف فى مصر أن يعلنوا ولاءهم للجانب الأقدر على تحقيق مآربهم فى البلاد وإن كانوا يرجون للإنجليز الغلبة ففى ذلك على الأقل قضاء على خصمهم محمد على .

وطالبهم محمد على بالوفاء بعهدهم . فتلكأوا ، فى السير شمالا من الصعيد فى جرجا حتى ينجلى الموقف فيكشفوا بهذا عن أغراضهم الدفينة وكأنهم أحسوا بالتقصير وضرورة مجاراة الموقف مع محمد على بعد أن علت كفته ، فأخذوا يبدون اعتذارهم عن التأخير .

حضر فى ٢٣ مايو سنة ١٨٠٧ كاشف الكبير الألفى فى سفارة من شاهين بك الألفى يبدى اعتذاره عن التأخر حتى ذلك الوقت ويبدى بقاءهم على المبادىء التى تعاهد عليها المماليك ومحمد على فى الصلح .

ثم يحضر إلى القاهرة بعدئذ فى ٧ يونيه سليمان أغا من الصعيد فيحاول إثارة خبر من الطمأنينة حول موقف المماليك فينبىء بقرب قدوم الأمراء المصريين وأن شاهين بك وصل إلى زاوية المصلوب وإبراهيم بك جهة فم العروس وأنهم سيستدعون إليهم

مصطفى أغا الوكيل وعلى كاشف الصابونجى .

ثم تأتى الأخبار بعد ذلك فى ١٤ يونية بأن إبراهيم بك وصل إلى بنى سويف وأن شاهين بك ذهب إلى الفيوم لاختلاف وقع بينهما وأن أمين وأحمد بك الألفى ذهبا إلى ناحية الإسكندرية .

السلطنة العثمانية تستحث محمد على على العمل :

وعلمت تركيا بموقف رشيد الباسل من الحملة الإنجليزية فأرسلت « كما يقول الجبرتى » إلى محمد على توصية بمتابعة الحرب ضد الانجليز فقد جاء فى ٢٢ يونيه سلحدار موسى باشا بمرسوم مكتوب باللغة العربية وآخر مكتوب باللغة التركية مضمونهما « جواب رسالة أرسلت إلى سليمان باشا بعكا يخبر عن أنباء حادث الإنجليز وملحقها أنه ورد علينا جواب من سليمان باشا يخبر فيه وصول طائفة الإنجليز إلى ثغر الاسكندرية ودخولهم إليها بمخابرة أهلها ، ثم رحيلهم إلى رشيد وقد حاربهم أهل البلاد والعساكر وقتلوا الكثير منهم وأسروا منهم كذلك — ونؤكد عمل محمد على باشا والعلماء وأكابر مصر بالاستعداد والمحافظة وتحصين الثغور مثل السويس والقصير ومحاربة الكفار وإخراجهم وإبعادهم

عن الثغر وقد وجهنا لكل من سليمان باشا وجينج يوسف باشا بتوجيه ما تريدون من العساكر للمساعدة ».

محمد على يشرع فى العمل :

وشرع محمد على على الفور فى الاستعداد للعدو بتعمير القلاع التى كان الفرنسيون قد أنشأوها خارج بولاق كما قال الجبرتى : « وعمل مقاييس بناحية ميت عقبة وغيرها ووزع على الجيارة جيراً كثيراً ووسق عدة مراكب وأرسلها إلى ناحية رشيد ليبنوا هناك سورا على البلد وأبراجا وجمعوا البنائين والفعلة والنجارين وأنزلوهم فى المراكب قهراً » .

ومضى محمد على فى استعداداته ولكن شاءت الظروف أن تحدد العلاقة بين الطرفين مؤقتاً فيتصالح الطرفان على نهج يتبعانه .

ولقد عز على القنصل الانجليزى «ميست» أن يترك القائد وحده دون أن يتدخل بينه وبين والى مصر ، فما زال يستدرجه حتى لا يوافق على اقتراح محمد على بإبرام تحالف مع بريطانيا وبألا يرتبط برباط الألبانيين لأنه رأى فى ذلك مضيعة للأهالى والمماليك وهم فى رأيه أصحاب حق ولم يستطع فريزر لضعف

شخصيته إلا أن يذعن لهذه النصيحة ، فأعلن مندوب الوالى أنه لو فك إسار الأسرى البريطانيين ووعد بألا يضيق الحصار على المؤن التى ترد من داخل البلاد فإنه يعده بألا يتدخل فى شئونه مطلقا بل يقدم إليه كل مساعدة ممكنة بأن يدفع للوالى رشوة من المال ، ثم بقيت الأمور تسير على هذا المنوال حتى فصل فى الموقف تَغَيُّرُ علاقة بريطانيا بفرنسا وتركيا ، بتغير الموقف الدولى .

وإذا كان للموقف العام فى الشرق الأوسط أثره الفعال على العلاقات القائمة بين الحكومات الأوربية فقد أثار ذلك الموقف بتتابع الحوادث منذ هزيمة بريطانيا فى رشيد إلى تحديد موعد الجلاء عن مصر .

— ٨ —

تحديد موعد الجلاء
والموقف الدولى

ومنذ هزيمة بريطانيا الحربية فى رشيد كان الموقف الدولى يتجه بحوادثه وآثاره إلى تقرير الغاية التى فرضتها رشيد على بريطانيا ثم تنفيذها من الجلاء الناجز عن البلاد .

وكانت بروسيا قد دخلت فى حلف التكتل بدل النمسا ، وتولى المستر جورج كالنج وزارة خارجية بريطانيا، وضاعف نابليون نشاطه فى مجال الشرق الأوسط فعقد معاهدة تحالف مع إيران ، وبعث إليها الجنرال جاردين وكثيراً من ضباطه ، ولم تعد الجالية الأوربية تخشى جانب الأهالى ، وكان أهم غرض يرمى إليه نابليون إذ ذاك هو خلق المتاعب فى وجوه أعوانه فى كل مكان .

وكانت تركيا تدخل فى هذا المجال ،وقد حاول بكل مايستطيع أن يحمى الروح القديمة فى قلوب الأتراك . من ذلك ، أنه أصدر أوامره بأن تترجم الفازيتا العسكرية إلى اللغة التركية ، وترسل هناك ، ولم يحل عام ١٨٠٦ حتى تقدم باقتراح عقد محالفة دفاعية هجومية مع تركيا ، واستغل نابليون التنافس القائم بين دول

أوربا ، ومنذ احتلال مقاطعة الدانوب وقفت النمسا بمعزل عن حلفائها القدماء ورفضت كل تعاون ، وذهب هناك بوزودى بورجو للقيام بنشاط دبلوماسى ، ولكنه أخفق وعاد بخفى حنين وكتب تقريرا أوضح فيه أن النمسا لن تعود إلى الانضمام إلى الحلف مالم تسحب روسيا جنودها من مقاطعتى ولاشيا وملدافيا — ورفض نابليون الصلح مع بروسيا ، مالم تقدم ضمانا بالمحافظة على أملاك الباب العالى ، وأن تتحالف معه إذا قام بإكراه روسيا على إخلاء منطقتى دول الدانوب ورفضت النمسا ، التوسط فى مؤتمر عام اقترحه نابليون عندما علمت أن تركيا مدعوة إليه ، ووضح لدى كاننج ولسفير روسيا أن الحرب مع فرنسا لا تفيد ، كما لا يفيد عقد الصلح معها ، إلا إذا أمكن لكليهما إبعاد نابليون عن إتمام الصلح مع تركيا ، ومن هنا كانت بعثة بوزودى بورجو وسير أرثر باجت إلى الباب العالى .

وكان نص المادة الأولى من المشروع الروسى لمعاهدة الصلح مع تركيا : أن تقبل الأخيرة تجديد كافة الاتفاقات والمعاهدات القديمة . ونصت المادة الثانية على أنه طالما كانت فرنسا محتلة دلماشيا فإن الخطر لا يزال قائماً ، لذلك اتفق على العمل على طرد فرنسا ، بالقيام بعمل مشترك .

كما نصت المادة الثالثة بضرورة إيجاد تحالف مع بريطانيا تشترك فيه روسيا ويكون الغرض منه المحافظة على أملاك الباب العالى .

أما المادة الرابعة فقد نصت بالترخيص لروسيا باحتلال قلعة شوكزم وبندر ، كضمان لها حتى تنتهى مفاوضاتها مع فرنسا .

وجاءت المادة الخامسة تنص ، على إقامة ولاية باسم سربيا يحكمها أمير ينتخبه الأهالى مدى الحياة ، على أن يؤيده السلطان .

أما المادة الأخيرة وهى السادسة فقد نصت على ، ضرورة إعادة مقاطعتى ولاشيا وملدافيا إلى حالتهما السياسية السابقة مع الترخيص لأبسيلانتى بالاحتفاظ بقوة حربية ، قوامها أربعة إلى خمسة آلاف جندى وذلك لحماية بلاده من أى هجوم يأتيها من جيرانها ولقد أسرع كاننج بإرسال باجت إلى الآستانة ليشترك بمجهوداته مع روسيا فى تسوية الخلافات التى حدثت من تركيا وروسيا وإقناع الباب العالى بالإبقاء على التزاماته والقضاء على النفوذ الفرنسى المسيطر على مجالس الديوان .

كانت بريطانيا وهذه الحوادث تجرى إلى مستقرها قد احتلت الإسكندرية ، وقد شاءت وهى تفاوض الباب العالى الاحتفاظ

بمصر ، لتكون بمثابة توازن تستغله إبان هذه المفاوضات ، إلا أن الجلاء العاجل عن مصر كان أمرا مفروغا منه .

فلم تكن حكومة بريطانيا قد وصلها بعد نبأ الأحداث التى وقعت فى رشيد ، وانتهت بتمزيق قوتها الحربية ، ولكن الذى كانت تخشاه هو ما علمته من التقارير الأولى ، لكل من فريزر وميست أن احتلال الإسكندرية وهو إجراء وقائى لابد منه ، للحيلولة دون الغزو الفرنسى ، قد يصبح أكثر ثقلا على إمكانيات بريطانيا الحربية لا تستطيع تحمله ، لذلك أصبح من واجب القائد العام بألا يتوقع بعد حادث الإسكندرية أية استجابة للإمدادات. وعليه أن يعرف أن نية حكومة بريطانيا لا ترقى إلى درجة امتلاك مصر من جراء معاهدة صلح. وبذلك عز على فريزر أن يتمادى فى وعوده لمساعدة المماليك على استعادة القاهرة .

ولما وصلت أخبار ووشوب وستيوارث فى رشيد إلى بريطانيا ورأت مدى الكارثة التى حاقت بجنودها ، أصدرت أوامرها السريعة إلى فريزر بإخلاء الإسكندرية ، أو العدول عن دخولها إذا لم يكن قد دخلها فعلا ، وكانت الحكومة البريطانية إذ ذاك تفضل احتلال صقلية عن الإسكندرية .

وفى نفس الوقت بذل الباب العالى جهده للحيلولة دون طغيان نفوذ فرنسا عليه ، فرفض قبول فصيلة فرنسية ، ورد على عرض فرنسا ابرام معاهدة تحالف دفاعى هجومى ، بسؤاله عما إذا كانت فرنسا تنوى سحب قوات احتلال بولندا .

وأرسلت تركيا سفيرها إلى حكومة فرنسا فى شخص « أمين أفندى » إلا أن التعليمات صدرت إليه ، وذلك لأن تاليران عندما سأله عن اشتراكه فى مؤتمر ، كان مزمعا عقده ، كان رده أنه لايفهم معنى كلمة مؤتمر. ولما طلب إليه إبداء الرأى فى العرض الفرنسى الخاص بإرسال طابور شرف فرنسى إلى تركيا ، أجاب قائلا بأنه يستحسن ألا يتم ذلك إلا بعد عقد معاهدة صلح. وتقرر أن يتولى المفاوضات معه كل من كولنكور ، وروكس ، بعد أن طال بهم الجلوس فى قاعة المؤتمر ، قال السفير التركى: إن التحالف يمنعه دين الإسلام ، ثم غط فى نوم عميق .

وكانت أهداف السياسة التركية ترقب ما تأتى به الأيام بين قوى الدول الأوربية العظمى ، التى أسند فيما بينها التوتر ، ثم الميل إلى سياسة التردد والنفاق والمواربه .

ووصل السير آرثر إلى صقلية فى ١٠ يولية سنة ١٨٠٧ والجنرال فريزر ممتنع فى الإسكندرية بعد هزيمته ، فاتفق مع الجنرال مور

لتأجيل سحب قوات فريزر من الإسكندرية لأن السير باجت ، كان يود أن تكون بين يديه ورقة يلعب بها إبان مفاوضات مع الباب العالى .

وعاد السير آرثر إلى تركيا فى ٢٨ يولية سنة ١٨٠٧ فوجد بوزودى بورجو وقد قابلته السلطات بغير اكتراث أو ترحيب ، كما أحس أن مقابلته مع الباب العالى محفوفة بالمصاعب بمكان ، وقد كانت الثورة التى قضت على السلطان قد قتل فيها الكثير من رجالات البلاد ، أثرها فى تعكير الموقف إذ لم يكن فى الإمكان القيام بأية اتصالات ذات فائدة رغم أن الثورة لم تكن تعنى بشئون السياسة الخارجية .

وبدأ الموقف ينجلى وتقترب الأمور من نهايتها لتنتهى مع ما اقتضتها هزيمة انجلترا الحربية فى رشيد من ضرورة جلاء البريطانيين عن مصر ، فبعد قليل وضحت اجتماعات للصلح مع روسيا وتركيا وبذلك قضى على بعثة بوزوز وقام باجت بالعمل منفردا لحساب دولته،وكان الأتراك إذا ذاك يميلون إلى صداقة بريطانيا لأنهم كانوا يخشون على شعور حلفائهم الجدد ، وقد أوضحوا لباجت أنه لم يكن ثمة حرب معلنة بين روسيا وتركيا بصفة رسمية. وعلى ذلك ليس ثمة داع لإبرام معاهدة رسمية

مع بريطانيا خصوصا إذا ماجلت عن الإسكندرية ورفعت الحصار عن تركيا .

وقد أجاب كاننج — وزير خارجية بريطانيا — على ذلك بأنه مستعد لسحب جنوده من الإسكندرية على شرط أن يقوم الباب العالى بتقوية الحامية التركية فيها، وأن يسمح بتعاون قوات الأسطول البريطانى إذا ما دعا الأمر للدفاع عنها ، وقد كان يقامر إذ ذاك بورقة خاسرة فلم يغن ذلك من الأمر شيئاً .

وأعلن قبطان باشا أن حكومة تركيا يؤلمها قطع المفاوضات مع بريطانيا حتى لا يسوء موقفها الحرج مع حليفتيها روسيا وفرنسا، لا سيما وأن بريطانيا لم تكن فى حالة حرب مع تركيا وأنه يعد بتقديم مقترحات جديدة لبريطانيا .

وبهذا قضى على بعثة باجت بالآستانة ، ومن ثم انتهت مهمته التى كلف بها واقتربت الحوادث من نهايتها، وانحدرت آثار الموقف الدولى لتلتقى بآثارها فى المجرى الذى فرضته رشيد على بريطانيا أن تسير فيه فتنتهى بتعزيزه . فلم تكن بريطانيا إذا ذاك راغبة فى البقاء فى مصر لتقوية حاميتها بعد أن تغير الموقف الدولى. وشاءت تجميع قواتها لمواجهة نابليون بعد أن أصبح بعد معاهدة تلست فى أوج عظمته ، كما لم تمهل الحوادث الجارية فى مصر ،

انجلترا ، لتساوم وتسوف وتطلب الثمن نظير جلائها عن البلاد فلم تكن مما يبعث الأمل على ذلك أو يثير الرجاء بتحقيق ما كانت ترمى إليه من خطط سياسية فى البلاد . فقد هزمت حربيا وسياسياً فى رشيد بفضل تماسك الشعب وجيش البلاد .

وقد دفعت الحوادث الداخلية وما انتهى إليه الموقف الدولى فريزر لأن تختمر فى ذهنه فكرة الجلاء قبل هذه الحوادث رغم التعليمات التى أرسلت إليه بتأجيل الجلاء لحين صدور أوامر أخرى ، فإنه جد فى إعداد الخطة لإخلاء الإسكندرية حتى أخلاها فعلا قبل هذه الحوادث بقليل .

— ٩ —

الجلاء عن مصر

استراح محمد على بعد هزيمة انجلترا فى رشيد مما تملكه من الرهبة من احتمال احتلال انجلترا مصر ، وقد بدأت آماله تتفتح والحوادث تجرى سراعا من حوله فى الخارج والداخل. وكانت مصر إذ ذاك فى شخصه تتطلعه لرؤية مصير الحملة بعد هزيمته ولم يكن هو يتوقع أن تجلو بريطانيا بسهولة عن مصر رغم هزيمتها .

وكان فريزر قد تصالح مؤقتا مع محمد على على اتفاق بعد اندحار قوات الأول فى رشيد اتفاق قوامه وقوف محمد على منه موقف الحياد والعناية بالأسرى الانجليز ،وبينما كان محمد على يهتم بذلك مقابل ألا يتدخل فريزر فى شئونه الداخلية كانت الأمور قد أسرعت إلى نهايتها ، فجاءه البشير إلى القاهرة ، رسول يبعثه الجنرال فريزر إليه ومعه رسالة منه بطلب المفاوضة فى عقد صلح بين الطرفين على أساس جلاء القوات البريطانية على الإسكندرية . ولما لم يكن محمد على يتوقع هذه النهاية وبهذه السهولة ، وهو الذى لم تفارق ذهنه محاولات انجلترا لبسط نفوذها على مصر ودسائسها

المستمرة للقضاء على حكمه فيها استقبل الرسالة دون أن يتوقع مضمونها وقد ظنها رسالة خاصة بالأسرى الإنجليز الذين أودعهم فى قلعته. فلما فض الرسالة ووجد فريزر يطلب منه المفاوضة فى الصلح لم يكد يصدق مضمونها ولكنه حاول كتمانه ودهشته منها والبهجة تملأ نفسه فى نفس الوقت، ثم أجاب الرسول بأنه سيذهب بجيشه إلى دمنهور.

إبرام الصلح:

سار محمد على بجيشه من معسكره فى إمبابه متوجها إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٧ وكان جيشه يتألف من ثلاثة آلاف من المشاة، وألف من الفرسان المجهزين بمدفعية قوية حتى بلغ دمنهور وهناك التقى بالجنرال شربروك الذى فوضه فريزر لإبرام الصلح بين الطرفين المصرى والبريطانى. وبعد مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ تنص على جلاء الجنود الانجليزية عن الإسكندرية.

وقد قضت فى مادتها الأولى بوقف الأعمال العدائية بين الطرفين فورا وجلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة على أن تنسحب تلك

من جميع القلاع والمنشآت وغيرها وعلى أن يسلم محمد على للقوات البريطانية رهائن تضمن تنفيذ هذه المعاهدة مكونة من صهره مصطفى بك وعمه إسحاق بك ومهر داره (حامل الختم) سليمان أفندى على أن يظلون على ظهر إحدى السفن الحربية حتى يتم تنفيذ هذه المعاهدة .

كما نصت المادة الثانية على أن يطلق سراح جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم . ويرسل هؤلاء بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يرحلون على السفن الإنجليزية إلى بلادهم .

أما المادة الثالثة فقد جاء فيها النص على إصدار عفو عام على سكان الإسكندرية دون غيرهم من الأهالى عما وقع منهم سابقا ، وعلى أن يؤمنوا على أرواحهم وأملاكهم على اعتبار أنهم قد اضطروا فيما سلكوه بحكم الظروف .

وقضت المادة الرابعة بتأمين حياة أمين بك الألفى وكان هذا قد بارح الإسكندرية إبان الاحتلال الإنجليزى ، وقد قضت بأنه فى حالة عودته إليها ألا أن يناله محمد على بسوء بل يشمله بالأمن له ولشيعته بشرط ألا يتجاوز عددها إثنى عشر شخصا .

أما المادة الخامسة فقد نظمت مسائل تسليم الأفراد والأرقاء

الملحقين بخدمة الجيش الإنجليزى وبقاء مندوب إنجليزى فى الإسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا .

وبعد أن أمضيت هذه المعاهدة فى معسكر محمد على الذى استقر فيه قرب دمنهور . وبادر والى مصر بتنفيذها فأمر على الفور بحمل الأسرى من القاهرة إلى حيث تقرر إرسالهم. ولشد ما كانت بهجتهم عندما أعلن عليهم النبأ فى ساحة القلعة . ثم أخذ الجنرال فريزر يعد العدة وتسليم الأسرى ، فما جاء اليوم التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٨٠٧ حتى كانت بريطانيا قد جلت عن الإسكندرية وطهر اديمها من الغزاة المعتدين ، وإذ ذاك تقدم طبوزاغلى إلى هذه المدينة وتسلمها نيابة عن محمد على ، ثم اقلعت السفن البريطانية محفوفة بعار الهزيمة ، ذاهبة بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية .

قال الجبرتى : « فى يوم الأربعاء ١٣ رجب وصل المبشرون بنزول الإنجليز من ثغر الإسكندرية إلى المراكب ، ودخل إليها كتخدا بك « طبوزاغلى » ونزل بدار الشيخ المسيرى » .

نتائج المعركة :

١ ــ امتداد نفوذ حكومة القاهرة إلى الإسكندرية .

٢ — تأكيد باشوية محمد على .

٣ — مفاوضات محمد على وفريزر كشفت عن مشروعات محمد على .

٤ — إحساس محمد على بخطورة الزعامة الشعبية .

وقد أتاحت هذه الفرصة لمصر ، أن تبسط نفوذها على الإسكندرية فتضمها جزءا من الوطن المصرى ، بعد أن كانت من قبل تابعة رأسا فى إدارتها إلى تركيا ، وقد دخلها محمد على لأول مرة بعد جلاء الإنجليز عنها وكان يوما مشهودا أطلقت فيه مدافع القلاع والأبراج تحية لدخول الوالى وابتهاجا بيوم الجلاء . وانضمام الإسكندرية ، إلى الأرض المصرية الحبيبة ، وبعد برهة أقامها الوالى فى الإسكندرية عاد منها إلى القاهرة ، فسار برا إلى رشيد يصحبه حسن باشا ، ومن هناك انحدر فى النيل إلى القاهرة ليستقبل فيها عهدا جديدا من تأمين الحكم ، وبناء مصر الحديثة ، فبلغها فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٧ فلما بلغ ساحل بولاق استقبلته مدافع القلعة بالتحية والإجلال .

ولما بلغت أنباء الجلاء عن الإسكندرية إلى الآستانة ابتهج السلطان محمود ابتهاجا عظيما ، فأرسل رسوله إلى محمد على يعبر له عن ابتهاجه وتقديره له ، ويهدى له سيفا ثمينا وخلعة ، كما أنعم على

نجله إبراهيم بك وطوسن بك وحسين باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك ، وغيرهم بالريش والخلع الثمينة .

الحملة أمام التاريخ :

واستراحت مصر من الغزو البريطانى الثانى فى طليعة القرن التاسع عشر وكشفت بهذه الانتصارات عن شروق قوة روحية تحمل من طياتها معالم بعث جديد ، وخسرت بريطانيا بحملة فريزر بجانب خسارتها الحربية الكثير من سمعتها الحربية والسياسية ، ولم يكن هناك أشد أسفا على فشل هذه الحملة ، وهزيمة انجلترا فى رشيد بأكثر من القنصل الإنجليزى «فيست» .

كان يستحث بريطانيا على احتلال الإسكندرية ، حتى يعقد صلحا مع تركيا وينصح بطرد الألبان ، وإعادة المماليك إلى سلطانهم ، وعقد اتفاقيات دفاعية معهم لحماية مصر ، وكان الباب العالى يسر ويبتهج لهذا التصرف ، لأنه إذ ذاك كان قد حرم من الجزية ومن الهدايا ، منذ أن تولى محمد على البلاد وكان «ميست» يعتقد أن مصر ستكون حقلا خصبا لمؤامرات فرنسا فى القريب العاجل ، ولكى يؤيد وجهة نظره ، رفع إلى حكومته ، عرائض شتى وقعها اليونان وأهل مالطه وقبرص

والشام ، والكثير من المماليك الأخرى المقيمة بمصر ، كما أرسل مملوك أمين بك إلى باجيت ، يقدم عبارات ولائه إلى بريطانيا وتركيا ، ولكن باجيت كان فى مركز لا يحسد عليه ، وقد تعذر على أمين بك الوصول إلى الآستانة كما أنه لم يتمكن من العودة إلى مصر لجلاء بريطانيا عنها فاتخذ مالطة مثواه الأخير .

وفضلا عن أخطاء فريزر ومسئوليات ميست كانت المهمة كلها خطأ وكان تقرير مور عنها هو الحق بعينه .

فلم تجشم بريطانيا نفسها دراسة الموقف وتتخير الوسائل الفعالة الكفيلة لتحقيق أغراضها ، فلا هى درست الموقف الداخلى فى دقة بشكل تعدله العدة ، فتحطاط لما يحتمل أن يجد فيه ظروف طارئه ، ولا هى قدرت أغراضها بوسائل كانت تجنبها هذه الهزيمة ، وكان حظ مصر فى مطلع حياتها الحديثة أن واجهت حملة قامت على افتراضات وآراء غير مدروسة ، وكان حظها أن وجدت فى نفسها القوة لفرض الهزيمة على بريطانيا حربيا وسياسيا .

فلو أن هذه الحملة كان قد تقرر بشأنها أمر من الأمور للتأثير على تركيا فإن مصر كانت فى مركز بعيد لا تحدث هذا الأثر . كما كان من المستحيل أن تصبح مصر من نصيب بريطانيا فى معاهدة صلح

ذلك أنه كان من الممكن أن يتم هذا مثلا دون الحاجة إلى إرسال حملة من صقلية : كان الأمر فى شدة الحاجة إليها وقتئذ فى مكان آخر أو حتى على الأقل ، كانت هذه الحملة ترسل إلى الدردنيل مع قوة بحرية إذا دعا الحال إلى ذلك .

كما كان الاعتماد على المماليك كقوة تؤازر الإنجليز لتنفيذ خططهم ، وتضمن لهم ارتباط مصر ببريطانيا ، برباط التعاون ، لتبقى لهم دوما موالية ، تؤمن طريقهم إلى الهند وتبعد عنها النفوذ الفرنسى — أمر يجانبه الصواب ويدل على قصر نظر ، فقد كانت قوة المماليك إذا ذاك آيلة للتفكك ، ولم يكن فى مقدورهم لما أصابهم من الوهن ، بدافع الأطماع الخاصة ، أن يقفوا وراء بريطانيا كتلة من أجل أغراضها ، فقد كانت أطماعهم الذاتية تمزق هذه الوحدة وتعرقل اتجاهها نحو الغاية المنشودة ، فلم يكن المماليك قوة إذ ذاك كما كانوا من قبل ، ولم تعد نظرة الشعب إليهم إلا من خلال الكراهية وعدم الثقة تنزل من هيبتهم ما رأوه على أيديهم من مظالم ، يحد من سلطانهم ما أصبح للشعب من زعامة تضمه تحت لوائها وهى تؤازر الوالى التركى الجديد محمد على فى محاربتهم ومواجهة الإنجليز على السواء .

ولم تعمل بريطانيا حساب الشعب فى تماسكه لاسيما بعد أن عبر

عن ذلك فى تحيز حاكمه ، وقد دللت الحوادث قبيل الحملة ، مدى تعلقه بمحمد على ، وتمسكه بزعامته كتلة متراصة ، حتى جاءت الضربة القاضية للجيش الإنجليزى فى رشيد ، ضربة قاضية تمثل حقيقة هذا التماسك وروح المقاومة الشعبية المشرقة حقا ، تحطمت على أثرها القوة التى اعتمدت بريطانيا عليها فى تحقيق مآربها الاستعمارية ، وحالت مصر بهذا دون اتخاذها أداة لتهديد تركيا والمساومة بها فى الموقف الدولى من أجل المصالحة على أخذ شىء بترك شىء فيها ، كما أنزلت من سمعة بريطانيا السياسية فى الشرق وأوقفتها أمام دافع مرير ، وعجلت بالجلاء. ولم يكن للموقف الدولى إذ ذاك من أثر إلا تحديداً لموعده المقدور . كما ثبتت مصر بانتصاراتها باشوية محمد على ، وأشعرت محمد على بخطورة المقاومة الشعبية على عرشه وأطماعه فى البلاد .

* * *

وبعد .

كان انتصار مصر على انجلترا فى رشيد نصراً للوعى الطالع وإعلاء لروح مصر المكافحة ، منذ أن بزغ فجرها فى طليعة القرن التاسع عشر ، وهزيمة للخطة البريطانية التى سايرت مجرى هذا التطور الروحى فى نموه حتى تجلى فى صورة أوضح فى موقف رشيد

ومن ورائها شعب متساند مع جيشه فى صد العدوان البريطانى الذى تمثل فى حملة فريزر سنة ١٨٠٧ .

وإذا تبدو هذه الطليعة إشراقا شعبياً وقوة روحية تمثل بهذا بذور وعى قومى ينمو فى إطار الفكرة الإسلامية فى مشرق مصر الحديثة ، وقد كانت طبيعة تكوينها الفكرى المبنية على بساطة تفكير العصر السياسى فى تخير حاكم البلاد فى حدود الولاء للخلافة الإسلامية ، عاملا فرض عليها فرضاً عامل هدمها من تخير حاكمها من غير ابنيها ؛ ليكون هذا الحاكم فى شخص محمد على ذى النزعة الطبيعية الأوتوقراطية .

وإذا كان ذلك مقدورا تفرضه طبيعة العصر فقد قدر بالتالى لهذه الروح الجديدة أن تخمد على يدى محمد على .

ولم تكن إذ ذاك فى بنائها العقلى وهى تكافح فى تعثر للخروج إلى العصر الحديث ، بقادرة على التجاوب فى تخير حاكمها فى نظرة مثالية ترنو إلى المستقبل إلا فى حدود تفكير العصر . فاستمدت من الماضى مقاييس الحاضر وعليها سمات عصر حديث . ولم تستطع أن تطبق معنى الحكمة الإسلامية فى تخير حاكمها إلا فى حدود الولاء للخلافة الإسلامية ، لذلك لم يكن تخيرها قوميا تماما ؛ لأنه قام بدافع الولاء للجماعة المصرية من خلال الولاء للخلافة

الإسلامية - ذلك الاتجاه الروحى الذى مثل محور نشاط الوعى الجديد . ومن ثم شاءت أن تفرض على نفسها وبمشيئتها حاكما أو أوتقراطياً لا يدين بطبيعة بغير الخداع والدسائس والقوة ؛ ليمكن لنفسه من الانفراد بالحكم عندما لم يكن هناك بد من ذلك .

ولقد ظلت هذه النزعة تراود محمد على ، وقد بدأت طبيعتها تتجلى من موقفه من رشيد الباسلة فى إهمال شأنها وتشريد بنيها وهذه الروح أضعف من أن تقومه إلا فى حدود تفكير العصر حتى أصبح محمد على من كفاحه فى سبيل الانفراد بالحكم بعد جلاء الإنجليز عن مصر ، فى منتصف الطريق .

تخلص من دسائس الباب العالى ، والحملة الإنجليزية ، وتصالح مع المماليك مؤقتاً . فلما تم له ذلك ارتد لتحقيق حلمه ويعبر عن طبيعته فى الانفراد الكامل بالحكم بالقضاء على المقاومة الشعبية التى أشرقت فى نصرها المؤزر على جيش بريطانيا فأصبحت نذير خطر على آماله ومكانته فى البلاد .

وجد هذا الباشا ، الطموح المستبد ، أن المقاومة الشعبية بعد الجلاء قد استنفدت أغراضها بعد أن رفعته إلى دست الحكم وحمته من الدسائس فى الخارج والداخل ، ووقفت تحميه فى حمايتها للبلاد من شرور الحملة الإنجليزية ، وساندته ضد المماليك ، فارتد

بكافة الوسائل لإخمادها ، ونقل قيادة الأمور فى مصر إلى يديه وحده .

وبدأ محمد على يسفر عن طبيعته ، بعد الجلاء فى وضوح لبلوغ أهدافه بوسائل القهر والتهديد والتشريد ، وإشاعة الرعب ، ليحل ذلك محل تلك البذور الأولى التى رسبت فى مجرى الوعى القومى المشرق .

اغتنم فرصة ثورة الجنود الأرناءود عليه عندما كان إذ ذاك يسكن الأزبكية ، ومطالبتهم له بدفع رواتبهم المتأخرة فانتقل إلى القلعة واتخذها مقراً لحكم البلاد ، بالقوة ، وبدون أن يعبأ برأى أحد فى ذلك . لقوة مناعة القلعة . وكفاية تحصيناتها . بدلا من وجوده بين الشعب وفى الأزبكية قلب القاهرة .

وبدأ موقف الإرهاب يشهر سيفه فى وجه كل معارض ، إذ ذاك ارتد إلى الزعامة الشعبية التى تبلورت فيها أهداف الشعب الجديدة يجد فى تفكيك أوصالها عندما اتجهت تلك تستثيره وهو فى علو مكانته فتزيده شعورا بخطورتها على مركزه وغيرة محتدمة على مكانته من وجودها قوة تنازعه وحدة السلطان والنفوذ فى الوقت الذى استنفدت أغراضها وأصبحت بالنسبة إليه غير ذات موضوع .

ولقد بدأ الصراع بين الطرفين عندما أخذ محمد على يمعن فى البهتة على وحدة النفوذ وتمتد يداه إلى الضرائب يقرض منها ما يشاء بشكل استثار به حفائظ الناس فكلما رفعوا شكواهم إلى العلماء يستهدفون بهذا التوسط عنهم لدى محمد على لرفع هذه المظالم . فقرر العلماء مطالبة محمد على برفع ما أحدثه من مظالم ومن ثم أشهر محمد على سيفه للقضاء على الزعامة الشعبية .

لم يطق محمد على صبرا أمام تدخل العلماء رغم أن هذا كان شأنهم دائما الذى عاصره محمد على من قبل . إلا أنه إن تقبله فى الماضى فلم يعد يطيقه الآن ولا كان ذلك من مصلحته . عندئذ تقدم فى ثبات لأن يقضى عليها دفعة واحدة .

وكانت الزعامة الشعبية أهون من أن تقف صامدة أمام أساليب محمد على موحدة ثابتة على قرارها دون أن تنهار بأبسط ضغط يوجهه إليها محمد على . فقد كانت تواجه محمد على وهى تحمل فى طياتها عوامل تخاذلها . تلك التى كانت جذورها تمتد بها إلى الوراء حتى ١٨٠٥ عندما انبثقت إثر خلاف الزعماء وتزاحمهم على نظر أوقاف الأزهر وقد بلغ التناقش والتحاسد الشخصى ذروته سنة ١٨٠٩ فى الوقت الذى صحت فيه عزيمة محمد على أن يوجه إلى المقاومة الشعبية فى شخص زعمائها الضربة القاضية. عندئذ لم يجد عناء فى القضاء عليها.

فما تقدم محمد على بأساليبه ليحل أوصالها حتى تفككت ولم يبق صامدا أمامه غير عمر مكرم . مصرا على تنفيذ قرار العلماء برفع المظالم عن الشعب .

عندئذ انتهز محمد على الفرصة واستطاع التخلص من هذا الزعيم الشعبي الذى كان لديه كالرقيب العنيد على أعماله بنفيه لدمياط ثم التخلص كذلك من الزعامة الشعبية كلها دفعـــة واحدة فطواها إلى حين .

ولقد كان موقفه من المماليك منبعثا بدافع نفس النزعة التى سيطرت عليه عندما قضى عليهم فى مذبحة القلعة وإذ يمثل ذلك لونا من نشاطه المستهدف الانفراد بالحكم فقد ارتد بالتالى ، فمثل عاملا جديدا استكمل به سعيه فى القضاء على المقاومة الشعبية حتى جمد بهذا ما بقى لها من أسس روحية كانت تنمو . فقد أحل بها فى النفوس القلق مكان الثقة،والرهبة مكان الشجاعة وانطوائية مكان النزعة المستقلة المشرقة حتى تبدلت روح الوعى الناشىء على يديه وانتقل إلى لون من الاستسلام إلى مدى طويل .

ومضى محمد على يبنى مصر الحديثة منفرداً بغير سند قومى فاهتم بالبناء العادى الحديث وتضاءل بجانبه البناء الروحى تماما ، وأقصى عنه المصريين ولم يستند إليهم إلا قرابة نهاية عهده ولكنه إذ يجمد

مشرق الوعى الجديد فقد اهل مصر ببناء حديث كدولة حديثة وأعد البيئة لاستنبات هذا الوعى وتطوره من جديد على أصوله الحديثة الواضحة بإعداده وهو فى حالة الكمون بأسباب هذا النمو وذلك بالأخذ بأساليب الحضارة الاوربية الحديثة فى بناء مصر الحديثة .

ولم تستطع هذه الروح أن تعبر عن ذاتها فى عهده ولا فى عهد أسلافه عباس وسعيد إلا لماما فى نهاية عهد إسماعيل حتى إذا ما زادت مصر اتصالا بالغرب وامتدت فيها موجات التجدد المادى والفكرى تجلت سيئات الخديوى ، وزادت مصر نهوضا بالتعليم فى نهاية عهد إسماعيل وعهد توفيق وبدا تحكم التركى يخدش مشاعر المصريين والاستعمار الغربى يستغل خيراتهم كان الانطلاق الأكبر على يد عرابى يمتد بأصوله إلى عصر محمد على ، ويتشعب بفروعه فى عهد أسلافه ، ويعبر عن ذاته فى اتجاه قومى حديث .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن

١ — الثقافة العربيــة أسبق من ثقافة اليونان والعبريين { للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — الاشــتراكية والشيوعية للاستاذ على ادهم
٣ — الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى للدكتور عبد الحميد يونس
٤ — قصة التطور ... ... للدكتو أنور عبد العليم
٥ — طب وسحر ... ... للدكتور بول غليونجى
٦ — فجر القصة ... ... للاستاذ يحى حقى
٧ — الشرق الفنان ... ... للدكتور زكى نجيب محمود
٨ — رمضان ... ... للاستاذ حسن عبد الوهاب
٩ — اعلام الصحابة ... ... للأستاذ محمد خالد
١٠ — الشرق والإسلام ... ... للاستاذ عبد الرحمن صدقى
١١ — المريخ ... ... { للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى
١٢ — فن الشعر ... ... للدكتور محمد مندور

١٣ — الاقتصاد السياسى... ... للاستاذ أحمد محمد عبد الخالق

١٤ — الصحافة المصرية ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزه

١٥ — التخطيط القومى ... ... للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن

١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... للدكتور ثروت عكاشة

١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى

١٨ — طريق الغد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى

١٩ — التشريع الإسلامى واثره فى الفقه الغربى } للدكتور محمد يوسف موسى

٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف

٢١ — قصة الأرض في إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح

٢٢ — قصة الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع

٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد احمد بدوى

٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى

٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب... للدكتور إمام إبراهيم أحمد

٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور احمد سويلم العمرى

٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى

٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل

٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣١ — فنون التصوير المعاصرة للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى

٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة

٣٣ — اعلام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمد خالد

الثمن قرشان فقط